الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران -السانيا

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية



مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير
في القرآن والدراسات الأدبية
بعنوان

العرض التاريخي في القرآن الكريم خصائصه وسماته الفنية

إشراف الدكتور الأستاذ :
سلطاني الجيلالي

من إعداد الطالبة :
مقدم رشيدة

السنة الجامعية 2006-2007

كلمة شكر

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم، وله الشكر كثيرا كما أعطانا كثيرا، والصلاة والسلام على من أرسله ربه شاهدا مبشرا ونذيرا محمد بن عبد الله وهو القائل:

"إنما بعثت معلما".

أتقدم بعميق الشكر إلى أستاذي المشرف "الجيلالي سلطاني" لأنه أنار لي الطريق لأسلكها، فقد رأيت فيه كل ما يدعو إلى راحة الضمير، وحسن الظن وتأدية الواجب، كما لمست فيه حب الخير للطلاب والوطن.

فقد كان له الفضل الأكبر في إخراج هذا البحث المتواضع إلى النور بعد الله سبحانه وتعالى

وفقه الله إلى المزيد عن كل ما أتت به القرائح الإنسانية حتى يصبح من رواد العالم.

أرى لب العلا أدبا وعلما بغيرهما العلا أمست قشورا

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل للجنة الموقرة على تحملها عناء قراءة هذه الرسالة وتصويب ما فيها من أخطاء.

الإهـداء

أهدي ثمرة جهدي إلى من قال فيهما ربي "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل ربي ارحمهما كما رباني صغيرا" ربي ارحمهما كما رباني صغيرا.

إلى عطر دنياي أخوي الكريمين، وأخواتي الفضليات، وإلى رفاق المشوار الدراسي الزملاء والصديقات.

وإلى كل أسرة مخبر المخطوطات "شمال إفريقيا" بالحضارة الإسلامية،

وإلى كل من أعانني ولو بالكلمة الطيبة.

إلى أختي التي لم تلدها أمي خديجة وعائلتها التي ربتها، والأخت الفاضلة والوفية فايزة.

وإلى كل من تكبد عناء البحث في القرآن الكريم وموضوعاته.

مقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب معجزة قائمة ما تعاقب الليل والنهار وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تقر لكتابه صدق الخبر وتستلهم من آياته العبرة والعظة، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي الذي خصه الله بجوامع الكلم وفصل الخطاب، وعلى آله وأتباعه، وسائر الأصحاب والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن القرآن المبين هو معجزة الإسلام الكبرى وحجة الرسول العظمى، فقد عجز أهل الفصاحة والبلاغة والبيان ممن نزل فيهم القرآن، الإتيان بمثله ولو آية وما ذلك إلا لسر إعجازه وسحر بيانه.

وقد ظل العلماء يطرقون باب الإعجاز في القرآن فما انفتح منه إلا القليل ومن بينهم الجاحظ (ت 225هـ) في كتابه البيان والتبين، والرماني (ت 384هـ) والخطابي (ت 338هـ) في إعجازهما والجر جاني (ت 447هـ) في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة والزمخشري في كشافه (ت 538هـ).

وهناك من يرى أن الإعجاز يكمن في الجمال الفني الذي يظهر في كل آيات من آيات القرآن الكريم، وأن الباحثين في البلاغة والإعجاز لم يولوا هذا الجانب عنايتهم.

فإعجاز القرآن الكريم لا يشتمل فقط على الجانب الأدبي واللغوي، وإنما يتعدى ذلك، فهو يكمن أيضا في اشتماله على كل كليات العلوم المختلفة كالعلوم الكونية التي معظمها لم يكتشف إلا في عصرنا الحالي، وهذه الآيات الكونية هي لغة العقول، وهي التي تمثل الإعجاز الحقيقي أمام إنسان العصر الحديث وكذلك العلوم التشريعية، والعلوم التاريخية، التي مازالت البشرية تتخبط فيها خبط عشواء، لهذا نجد دائما القرآن الكريم يدعونا للتعمق في الدراسات التاريخية والحضارية بإيمانها ومدنيتها وتاريخها، بغرض السير على الطريق المستقيم والاعتبار منها.

فاشتمال القرآن على علوم عدة ومنها علم التاريخ، هنا الإعجاز بعينه، لأن العرب لم يكن أدبهم مشتملا على التاريخ إلا بإشارات نادرة، كقولهم درع عادية، ورمح بزينة، ولم يأبهوا بذكر قصص الأمم التي هي مواضع العبرة، فجاء القرآن بالكثير من ذلك مفصلا ومجملا.

واتخذ القرآن من مفهوم التاريخ موقفا متميزا عن باقي الفلسفات البشرية بحيث ارتقى بمستوى دراسته من مجرد وصف لحوادث سابقة مع محاولة الوصول إلى بيان حقيقتها، إلى مستوى روحي وثيق الصلة بالله تعالى.

والمقصود بالتاريخ تصور الإنسان لنشأة الكون والمجتمع الإنساني وامتداد الحياة ، أو بعبارة أخرى هو صورة الحوادث التي جرت والتي أثرت في مسار الحياة، وخصوصا حياة الأبطال والعظماء، والإنجازات العظيمة للشعوب، فالمجتمع مثله في ذلك مثل الفرد، لا يستطيع أن يمارس الحياة دون أن يكون لماضيها في نفسه تصور واضح المعالم، وشخصية متمايزة يرتكز عليها الحاضر، وإنه لا يمكن تحديد الكائن الإنساني إلا وهو يحمل شحنة تاريخية، كما لا يمكن بلوغ الإنسانية بتجريد ينتزع منها كامل خبرتها، بل إن إدراكها إنما يتم عن طريق هذه الخبرة المكتسبة التي جعلت منها شيئا فشيئا ما هي عليه.

ولهذا نجد القرآن الكريم دأب على سرد الوقائع التاريخية والأحداث ثم انتقل إلى الخروج بتعميمات تدل على معنى التاريخ، فهو يسمى الأحداث بالذكر لأنها تأتي من خلال التذكر لوقوعها في الماضي مما يجعلها صالحة لأن تكون مقابلة لكلمة التاريخ التي تعني تدوين حوادث الماضي.

ومن هنا ونظرا لما يشكله موضوع التاريخ من أهمية بالنسبة للفرد والمجتمع ارتأيت أن أبحث في هذا الموضوع، وفق الطبيعة التي عرض بها القرآن الكريم هذا الفن، وقد اخترت كعنوان لهذا الموضوع: **"العرض التاريخي في القرآن الكريم، خصائصه وسماته الفنية."**

ويعود سبب اختيار هذا الموضوع إلى الأهمية البالغة التي يكتسبها سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.

فتكمن أهميته بالنسبة للفرد في الوصول إلى غاية الإنسان في هذا الوجود ومدى التدرج الذي اعترى خصوصياته الذاتية والفكرية، وكيف حاول القرآن أن يحافظ عليها لبلوغ مستوى الإيمان المطلق بالله.

أما أهميته بالنسبة للمجتمع، فإنها تجعل القرآن يؤسس لنموذج الحضارة الجديدة التي اختزلت في المجتمع الإنساني بجميع مكوناته التي انفرد بها عن باقي المجتمعات سواء الجاهلية أو الأمم الغابرة، والتي جعل القرآن منها موضوعا للتاريخ.

ويرجع الدافع الأساسي في اختيار هذا الموضوع إلى الرغبة في معرفة طريق القرآن حين تناوله للقضايا التي تعرّض لها كالقصص، الخلق، والرد على بعض النظريات القائلة بتطور الإنسان عبر التاريخ من خلال آيات الخلق، بالإضافة إلى دفع الشبهات والشكوك الواردة بشأن هذا الموضوع والمتمثلة في أن القصص التاريخي لا يتصف بالصدق التاريخي، وأنها مجرد أساطير، وتفرد القرآن بأسلوبه المتميز عن أساليب العرب في عرض القصص بعرض تصويري رائع، يجعلنا نتساءل إذا كان في القرآن تاريخ، فما هي مكانته الفنية في عرض مسائله؟.

وحين إطلاعي على هذا الموضوع في الكتب التي تناولته اتضحت لي عدة إشكالات تثار في هذا الموضوع نذكر منها ما يلي :

1- ما هي أهمية معرفة ماضي الإنسان بالنسبة لحاضره، وكيف تناولها القرآن الكريم؟
2- ما علاقة التاريخ بالقرآن في تصويره للإنسان والكون والحياة؟
3- كيف تم توظيف التاريخ في القرآن؟
4- هل أثر منهج القرآن في سرد الوقائع والأحداث التاريخية في الكتابات التاريخية ؟

5- هل نستطيع القول أن القرآن أسس فلسفة خاصة للتاريخ؟

ولا يفوتني أن أذكر أهم المصادر التي استفدت منها خلال بحثي ودراستي، ومن أبرزها؛ مؤلف الطاهر بن عاشور "تفسير التحرير والتنوير" وكذلك مؤلف الزمخشري "الكشاف"، وكتاب "في ظلال القرآن" للسيد قطب، أما المصادر التاريخية فتتمثل في "البداية والنهاية" لابن كثير، و"قصص الأنبياء" لعبد الوهاب النجار، و"مقدمة" ابن خلدون، ومؤلفات قسطنطين زريق.

كما أفادتني كثيرا مطالعة بعض كتب المحدثين الذين تناولوا الجانب الفني في الدراسات القرآنية من أجل استخلاص السمات الفنية التي يمتاز بها العرض التاريخي ومن أهمها: "من روائع القرآن الكريم" تأليف محمد سعيد رمضان البوطي، "النبأ العظيم" عبد الله دراز، "روائع الإعجاز في القصص القرآني" لمحمد السيد حسن وكذلك "التصوير الفني" للسيد قطب، و"الظاهرة القرآنية" لمالك بن نبي.

وجاء البحث مقسما إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول، تعرضت في المدخل إلى مفهوم التاريخ وأهميته، وكيف يتصوره العلماء الغربيون والمسلمون، أما **الفصل الأول** فعنونته بالتاريخ في القرآن وقسمته إلى ثلاثة مباحث تحدثت في المبحث الأول عن ماهية السنن التاريخية، أما المبحث الثاني فتحدثت فيه عن قضية الخلق ونشأة الجنس البشري، وخصصت المبحث الثالث لقضية الاستخلاف وأنواعه، وقد خلصت بكل مبحث بنتيجة.

وأفردت **الفصل الثاني** لدراسة وصف الحضارات الواردة في القرآن الكريم، فقسمته إلى ثلاث مباحث، جعلت المبحث الأول دراسة لحضارة عاد وثمود، والمبحث الثاني لحضارة داوود وسلميان، والمبحث الثالث للحضارة السبئية.

وخصصت **الفصل الثالث** لدراسة الخصائص والسمات الفنية للعرض التاريخي، وقسمته إلى مبحثين، تناولت في المبحث الأول السمات الفنية للعرض التاريخي، وفي المبحث الثاني خصائص العرض التاريخي.

ثم أنهيت البحث بخاتمة أفردتها لأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

ولا أنسى أن أقدم جزيل الشكر للأستاذ المشرف الذي لم يبخل بتوجيهاته العلمية، ونصائحه المستمرة، التي كانت حافزا ومعينا على إتمام هذا البحث المتواضع ليخرج في شكله هذا، فلله الحمد والمنة، وولي كل خير ونعمة.

مدخل:

إن للتاريخ قيمة كبرى باعتباره مصدرا هاما للمعرفة البشرية، وهذا ما يفسر ضرورة الكتابة فيه، كونه يمثل دورا في تغيير وضع الإنسان وتوجيه مصيره، ذلك أنه منذ بدء الخليقة أخذ الإنسان يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطير ومعتقداته، فبدأ التاريخ يظهر مختلطا بعناصر من الفن كالرسم والنقش على الحجر، وعندما سارت البشرية قدما في مضمار الحضارة بشتى أساليبها وصورها، صار التاريخ يشكل أساسا جوهريا في تسجيل موكب البشرية فأصبح مفتاحا للمعرفة البشرية أو المرآة والسجل الشامل الذي يقدم لنا ألوانا من الأحداث، وفنونا من الأفكار، وصنوفا من الأعمال والآثار حتى قيل عنه: "أنه الصيغة العقلية التي تصوغ فيها مدينة ما حكايتها عن ماضيها"[1].

فالتاريخ يعني النبض الحي لحياة الإنسان على الأرض لأنه يسجل تفاعل الإنسان مع بيئته، بما يتضمن ذلك من عصارة فكره ونتاج تجاربه، أو هو تصور الإنسان لنشأة الكون والمجتمع الإنساني وامتداد الحياة، وبتعبير آخر ماضي وجود الإنساني وما تخلل ذلك الماضي من الملابسات والوقائع التي لها قيمة ومغزى بالقياس إلى وجود الإنسان[2].

وعليه فالتاريخ يعتبر مصدر العلوم لأنه يعرض لنا مراحل تطور العقل الإنساني في بستان المعرفة من دين وأدب وفن...إلخ ومن أهم التساؤلات التي تطرح حول هذا الموضوع والتي آثارها المحدثون حول فكرة التاريخ يمكن تلخيصها في ثلاث قضايا تتمثل فيما يلي ما هو مفهوم التاريخ في منظور العلماء الغربيين والمسلمين؟ وما الغاية من دراسة التاريخ؟ وما الفائدة التي تتجلى من دراسته؟ وهل يعتبر التاريخ فنا من الفنون أو علما مستقلا بذاته؟

---

(1) هنري جوتسون: تدريس التاريخ، تر: أبو الفتوح رضوان، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، 1965، ص21.

(2) أحمد إبراهيم الشريف: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت، ص151.

1)- مفهوم التاريخ :

اجتهد المؤرخون القدامى والمحدثون في تعريف التاريخ وقدموا آراءهم مدعمة بوجهات نظرهم كل يحاول أن يدل بدلوه في هذا المجال، فأعطيت تعاريف ومفاهيم عديدة لهذا المصطلح، حتى صار معروفا لدى المهتمين به.

التاريخ، المعنى اللغوي:

كلمة تاريخ من أرخ، يؤرخ، تاريخ بمعنى الإعلام بالوقت، كما يعني التقويم العددي في الزمن، وكلمة تأريخ مشتقة من الأرخ بكسر الهمزة أو فتحها وتعني وليد البقر الوحشي كما قالت الخنساء[1]:

ونوح بَعَثْتَ كمثل الإراخ آنست العين أشبالها

ويعو الارتباط بين الوليد ولفظ التاريخ أن الوليد دخل الزمن ومن بين ما يهتم به التاريخ النشأة والميلاد والتطور عبر الزمن[2]، وهذا يدل على أن لفظ التاريخ عربي.

وقيل أنه ليس عربي محض بل مأخوذ من "ماه روز" بالفارسية ومعنى "ماه" القمر، و"روز" اليوم والمراد منها تعيين بدء الشهر القمري، أما "جب" H.Gibb أكد على أن لفظ التاريخ

(1) هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحية السلمية من بني سليم أشهر شوارع العرب، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله مع قومها بني سليم، وأكثر شعرها وأجوده رثاءها لأخويها صخر ومعاوية، لها ديوان شعر مطبوع توفيت سنة 24 هـ، ينظر: عبد مهنا: معجم نساء الشاعرات الجاهلية والإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ1990م، ص74.

(2) أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار الجيل، بيروت، لبنان، مج 3، د.ط، 1412هـ1992م، ص4.

- ينظر: أبو الحسين بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، نح:عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت مج1، ص 94.

عربي، بمعنى العد والحساب أو التوقيت، أي تحديد الوقت وتحديد الشهر[1].

ويقال تاريخ الشيء أي وقته وغايته، والتاريخ أيضا يبحث في الوقائع والأحداث الماضية[2]. وقد يعني أمجاد قوم، يقال فلان تاريخ قومه أي إليه ينتمي شرفهم ورياستهم[3]، كما يعني تراجم الرجال "بيوغرافيا"، ومن ذلك تاريخ البخاري[4].

الدلالة في اللغة الأجنبية:

التاريخ باليونانية IOTOPIA وتعني البحث أو الاستعلام، كما تعني فعل النظر أو بالأحرى شاهد العيان، وما يضيفه هذا الشاهد إلى تجربته الخاصة ليس إلا شهادة أخرى[5]، أو بمفهوم آخر أنها تعني التعلم أو المشاهدة أي كل ما يتعلق بالإنسان منذ أن بدأ يترك آثاره على الأرض، أما في اللغة الإنجليزية History وفي اللغة الفرنسية Histoire لفظة مأخوذة من الكلمة اللاتينية Historiaالتي تدل على معنى الرؤية والبحث أو الاستقصاء بقصد المعرفة[6]، كما استعملت أيضا في التعبير عن القصص الخيالية، وهي بمعنى أدق العالم الذي يبحث في تغيرات المجتمعات الإنسانية عبر الزمن لاكتشاف أسبابها[7].

(1) محمد بيومي مهران: التاريخ والتأريخ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، د.ط، 1412هـ1992م، ص4.
(2) أحمد رضا: معجم متن اللغة، مكتبة الحياة، بيروت،د.ط، 1377هـ1958م،مج 1، ص160.
(3) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، لبنان، ط1، 1306هـ، مج2، ج2، ص250.
(4) وهبة مراد: المعجم الفلسفي ،دار قباء للطباعة والنشر ،مصر ،د.ط،1998م،ص160.
(5) هورس جوزف: قيمة التاريخ، تر: نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1986، ص10.
(6) مصطفى النشار: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، دار قباء للطباعة ، القاهرة، د.ط، د.ت، ص15.
(7) سليمان الخطيب: أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1406هـ1986م، ص26.

اصطلاحا: التاريخ تلك الكلمة ذات المدلولات العديدة، وذات الأثر البالغ على كل من يسمعها، تكتسب تلك الأهمية من كونها قد اتخذت كاسم علم لواحد من أهم العلوم الإنسانية.

فالتاريخ "هو مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع معين من الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في مجتمع ما خلال توالي الأزمنة" أي هو علم يتضمن ذكر الوقائع التي تتصل بالبشر في فترة محددة من الزمن الماضي.

وعلى حد تعبير Carr فإن التاريخ هو عملية تفاعلية أو عملية حوار بين الأحداث أو الوقائع التي حدثت في الماضي"[1] ويعرفه فوستيل دي كولانج: "التاريخ علم؛ إنه لا يتخيل، إنه يرى فقط وهو كغيره من العلوم قوامه الكشف عن حقيقة الوقائع ثم تحليلها ودرس التقارب فيما بينها والإشارة إلى الروابط الواصلة"[2].

(1) مصطفى النشار: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، ص36.
(2) هورس جوزف: قيمة التاريخ، تر نسيم نصر، ص65.

أ- التاريخ في نظر المفكرين الغربيين:

لم تكن كلمة تاريخ في الماضي تدل على معنى واحد، فقد كانت تدل على معان متفاوتة وعديدة، حيث نجد أنها كانت تدل عند سقراط[1] على المعرفة، وعند أرسطو[2] على مجرد جمع الوثائق[3]، أو القص التاريخي لكل ما سبق سواء كان يتعلق بالأحداث الإنسانية أو الحيوانية أو النباتية أو يتعلق بإنجازات العلماء السابقين في كل مجالات أبحاثهم العلمية[4] ومعنى ذلك أن التاريخ عند أرسطو هو مجرد تصوير الماضي تصويرا فنيا معتمدا على الخيال أكثر من الحقيقة.

أما التاريخ عند **هيردوت (485-425 ق.م)** والذي يلقب بأبي التاريخ فيرى في نظره هو تتبع الأحداث التاريخية التي صنعها الإنسان في الأزمان الماضية، أو محاولة تمحيص هذه الأحداث وروايتها على نحو ما وقعت به فعلا بقدر الإمكان.[5.] ويتضح من ذلك أن هيردوت آثر البحث الحقيقة مبتعدا عن الخرافات فأعطى للتاريخ بعدا سياسيا وحضاريا واجتماعيا وبعد هيردوت بدأ التاريخ يظهر كضرب مستقبل من المعرفة على يد ثيوكيديس حيث شعر أن مهمته هي رواية الأحداث الماضية ونقدها[6].

(1) سقراط: فيلسوف يوناني، ولد سنة 47 ق.م بألوبيكية بأتيكا، ابن النحاث سوفرو نيسكوس، تتلمذ على يد بروديكوس والمهندس تيودور السوريناني، كان ناقدا لاذعا للآراء الإنسانية، من مؤلفاته كتاب الغيوم وهو أقدم كتاب، كتب عام 423 ق.م، يشتهر بالنزعة المثالية، توفي في أثينا سنة 399 ق.م. ينظر:شارل حلو،روني إيلي ألفا ،جورج نخل، الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ط1، 1416ه-1992م، ج1، ص559.

(2) أرسطو طاليس: ولد سنة 384 ق.م، تتلمذ على يد أفلاطون حوالي عشرين عاما، وأثناء وفاة معلمه غادر أرسطو إلى أسوس وهي مستوطنة على شاطئ آسيا سنة 335ق.م، أسس مدرسة جديدة عرفت بالمدرسة المشائية، حكم عليه مجمع حكماء آثينا بالإعدام، توفي سنة 321 ق.م، من مؤلفاته، تمهيد، كتاب الخطابة.ينظر: المرجع السابق ،ج1،ص72 .

(3) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، 1982م، ص277.

(4) مصطفى النشار: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، ص12.

(5) المرجع نفسه، ص11.

(6) سليمان الخطيب: أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، ص26.

أ- هيجل (1770م-1831م [1]):

لا نغالي القول إذا قلنا أن هيجل يمثل مسيرة تاريخ، باعتبار أن حياته جمعت بين القرنين (18-19م) حيث شهدت جملة من الأحداث، كانت بحث منعطفا في حركة التاريخ الأوربي خصوصا والعالم عموما.

فمعايشته لأحداث الثورة الفرنسية 1789م التي حملت شعار الحرية والإخاء والمساواة إلى ألمانيا، وكذلك معايشته دخول الإمبراطور نابليون الأول مدينة برلين عاصمة مملكة بروسيا، وفرضه مراسيم برلين الشهيرة عام 1806م التي أدت إلى سيطرة الفرنسيين وحلها محل السيطرة النمساوية، أثر تأثيرا كبيرا في أفكار هيجل الذي كان يشده الحنين والتعصب إلى الجنس الألماني. فحاول أن يعطي علّة تفسير حركة التاريخ، انطلاقا من محاضرات في فلسفة التاريخ إلى الاعتقاد بأن "التاريخ الحقيقي لا يبدأ إلا مع ظهور الوعي، إذ لا بد وأن ينفصل الإنسان عن الطبيعة بحيث يصبح واعيا بنفسه، حتى ولو ظل هذا الوعي معتما للغاية لفترات طويلة من التاريخ"[2].

ومن ثم يتحرك تاريخ العالم في إطار عملية عقلانية، وتكون هذه المعقولية يمثلها نظام معين، وليس مجرد كليات تجريدية، فالتاريخ بعد ذلك ليس هو تكرار الأجزاء من الأحداث المتماثلة وإنما هو: "الوحدات الكاملة والعمليات المتجهة إلى تنسيق المفردات المنوعة في نظم "Systèmes" إذ تتجلى في التاريخ الواقعي في المعارضات والصراعات"[3].

فحركة التقدم في التاريخ عند هيجل إنما جاءت بفعل المتناقضات والاصطدامات التي تؤدي إلى وضع الأمور في

---

(1) هيجل: فيلسوف ألماني من مواليد (1770م-1831م)، تخصص في دراسة الحقل في التاريخ، كان متحمسا للجنس الألماني، له العديد من المؤلفات: المنطق الكبير، فنومونولوجيا العقل، محاضرات في فلسفة التاريخ.ينظر:روني إيلي ألفا:موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، ج2، ص569.

(2) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، تر: أسامة عبد الفتاح، مراجعة فؤاد زكريا، دار التنوير والنشر، بيروت، ط2، د.ت، ج1، ص39.

(3) آلبان.ج ويد جري: التاريخ وكيف يفسرونه، مطبعة الهيئة المصرية العامة، ط1، د.ت، ص168.

نصابها، فتلك المتناقضات والاصطدامات يمكن أن نقول أنها مثلت بلفظ هيجل ميلاد جديد للعقل والوعي في التاريخ، فالعقل الإقطاعي، وأفكار "الحق الإلهي للملوك" سوف تجد ما يناقضها تماما بعد الثورة الفرنسية من خلال شعاراتها "الإخاء، المساواة والحرية"، وبالتالي يبدأ التاريخ الفعلي حسب آراء هيجل من خلال هذا التحول والتناقض الذي يؤدي إلى التطور في الوعي والعقل، ومن خلال هذا التقدم في حركة التاريخ يرى هيجل بأنه تقدم نحو الحرية وهو التاريخ الكلي.

وأخيرا يمكن أن نلخص إلى نتيجة عامة من خلال النظرية المثالية لهيجل في فهم التاريخ إلى المعادلة البسيطة التالية: التاريخ الكلي = حركة العقل + الحرية[1].

(1) عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، دار المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1984، ج2، ص591.

ب- كارل ماركس (1818م-1883م) [1].

لقد عكف "ماركس" في مطلع حياته على مؤلفات "هيجل" (1770-1831م) وظل عقله وقلبه راغبا عنها، غير أن نظرية "دارون" (1809-1882م) ساهمت في التطور على عقل ماركس فنبذ الميتافيزيقية، ونقم ماركس نقمة كبرى على الأخلاق ورأى أن "هيجل" يعالج أشباحا لا واقعا إنسانيا.

وكانت أفكار "ماركس" مستمدة من العقيدة اليهودية التي تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية[2].

ولكي يدرس الفكر الماركسي في أصوله لتستنبط تصوراته وآراؤه فينبغي أن نبحث كليات أفكاره، وهي فكرته عن الله، الإنسان، الكون، الحياة والتاريخ الذي هو موضوع بحثنا، فكيف كانت نظرة كارل ماركس إليه؟

يرى "ماركس" أن كل شيء أصله الأول المادة، وحتى الأفكار والمفاهيم والوعي مرتبط أولا وبشكل مباشر ودقيق بالنشاط المادي، والصلات المادية للبشر، وتلك لغة الحياة الحقيقية عند "ماركس".

فالتاريخ في نظره سوى تعاقب الأجيال المختلفة، وكل جيل يستثمر المواد الأولية والخزينة المالية والقوى المنتجة التي استلهمها من الجيل السابق، فهو يتابع من جهة النشاط التقليدي في ظروف متغيرة كلية، ومن جهة أخرى يقوم بتعديل الظروف أي كل جديد يصبح قديما بفعل الإنسان ذاته، وهذا يظهر لنا أن التاريخ لا يتلاشى في أمان وآمال الشعوب الروحية، ولكن ينتهي بإيجاد نتيجة مادية في كل مرحلة من مراحل تاريخ الجيل، أي أن كل جيل يتسلم من الجيل السابق كتلة من القوى المنتجة والأموال

---

(1) كارل ماركس : (1233ه-1300ه/1818م-1883م)ولد بمدينة ترير في ألمانيا،كان عالما في الاجتماع والاقتصاد،وثوريا نشطا ،لم يكن فيلسوفا في بداية الأمر،ترتكز شهرته على جهده الهائل للكشف عن القوانين التي تتحكم في سلوك الناس، نوفي بمدينة لندن . ينظر:الموسوعة الفلسفية المختصرة،تر:فؤاد كامل ، جلال العشري،عبد الرشيد الصادق،مراجعة:زكي نجيب ،دار القلم،بيروت ،لبنان ،د.ط، د.ت، ص338.

(2) محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، دار الغرب د.ط، د.ت، ص78.

والظروف التي يعد لها الجيل الجديد من جهة أخرى والتي تملي عليه شروط حياته وتمنحه تطورا معينا[1] وعلى هذا الأساس قسم ماركس مراحل التاريخ إلى خمس مراحل:

1- المرحلة البدائية: وكان الإنسان يعيش فيها من صيد الحيوان، ويرتع نبات الأرض.

2- المرحلة المستعبدة: وانقسم الناس فيها إلى سادة وعبيد، فالسادة مالكون لوسائل الإنتاج والعبيد عمال، ولم يتعد هذا التطور احتراف الزراعة وتربية المواشي.

3- المرحلة الإقطاعية: المرتكزة على الفلاح، إذ يملك السيد الأرض، وتقوم بجانب هذه الملكية الواسعة ملكية ضئيلة هي ملكية الفلاح الصانع لآلات الحراثة.

4- المرحلة الرأسمالية: التي استعبدت العامل وقتلت اليد العاملة، وناقضت هذه المرحلة نفسها مما سبب الأزمات الاقتصادية، وأدى إلى حتمية انتقال الإنسانية إلى مرحلة أخرى عن طريق الصراع الطبقي، وهذه هي المرحلة الخامسة أي مرحلة الشيوعية، وهذا التوليد التاريخي للمراحل هو الأساس في الصيرورة التاريخية عند ماركس والتي تدل على أن تاريخ البشرية عبارة عن سلسلة من التناقضات التي هي صراع الطبقات الاجتماعية وهي ظل للصراع الاقتصادي[2]، فهو يرى أن أطوار التاريخ تنتهي عند المرحلة التي تزول فيها الطبقات الاجتماعية.

ج- أزفالد شبنجلر (1888م-1936م):

كان لشبنجلر نظرة جديدة في تطور التاريخ، تتمثل خاصة في تقديسه لطبقة النبلاء لأنها تمثل روح الأمة في، وهي تدفع بالتاريخ، ولم يعط أية أهمية للطبقات الأخرى والتي تتمثل في الشعوب الأولية، والشعوب الفلاحية والزراعية حيث يقول: "إن

(1) كارل ماركس: المادية التاريخية، انجلز لينين، دار الفارابي، بيروت، د.ط، 1975م، ص34-35.

(2) موسى سلامة: الصراع في الوجود، دار المعارف القاهر، د.ط، د.ت، ص128-129.

التاريخ لا وجود له إلا بالأمم، وإن لكل أمة طالما هي تحيا وتناضل دولة، ولا تكون دولة إلا إذا كانت مكونة من طبقتين لا أكثر ولا أقل وهما: طبقة النبلاء، وطبقة الكهنوت، أما طبقة الفلاحون والعمال وحتى في نقاباتهم فإنهم لا يؤلفون طبقة"[1].

ومن خلال تقيسمه للشعوب رفض تقسيم التاريخ واعتبر أن الزمان وحدة كبرى واحدة وأن كل حادثة تاريخية فريدة لا تتكرر، فيقول:" إن كل حدث هو فريد في نوعه وعاجز أن يكرر ذاته فهو يحمل طابع الاتجاه (الزمن) طابع عدم الارتداد، لذلك فإن كل ما حدث يدرج في باب المصير وليس في باب الصيرورة"[2]، واعتبر التاريخ مطبوع بطابع الحدوث والاستمرارية ويقوم على وقائع وأحداث تتابع في صيرورة نتيجة لعوامل داخلية وخارجية ناتجة عن أفعال الإنسان وأخلاقه وتصرفاته.

ويرى أن الدارس للتاريخ المعلل لأحداثه يقوم بتوسم الملامح وقراءة "السيماء" فيتخذ من ملامح الحوادث رموزا للروح التي أبرزتها، وعليه فإن دراسة التاريخ في نظره تقوم على منهج التوسم[3].

د- أرنولد توينبي: (1889م-1975م)

درس توينبي تاريخ البشرية دراسة عامة واستنتج أن مدلول التاريخ هو: العلم الذي يبحث في حياة الأمم والمجتمعات والعلاقات التي تقوم بينها[4] أو بعبارة أخرى البحث عن النور في مسيرة الإنسان، كما أنه شعر نظمه الإنسان عن الإنسان، أو سجل

(1) شبنجلر أوزوالد: تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط ،1964م،ج1،ص11.
(2) المرجع نفسه، ص197.
(3) محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص85.
(4) عبد المنعم حنفي: المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبويلي القاهرة، ط3، 1420ه-2000م، ص176. ينظر: كميل الحاج: الموسوعة المسيرة في الفكر الفلسفي و الاجتماعي،مكتبة لبنان، بيروت ،ط1،2000م،ص145.

الفكر الإنساني لأنه يعرض لنا مراحل تطور العقل الإنساني في بستان المعرفة من دين وأدب وفن...إلخ[1].

ويرى توينبي أنه لايمكن دراسة تاريخ أية أمة بمفردها أو عصر بذاته ،بل البحث التاريخي لابد أن ينصب على بحث قضايا الحضارة ككل، والتي تعتبر الدول والأمم أجزاء منها. وبهذا يستحيل دراسة تاريخ أمة أو دولة بمعزل عن تاريخ بقية الأمم، لأن الإنسانية كل متكامل شاءت أم أبت وهذا أمر ثابت منذ الأزل، وبالتالي فإن دراسة الحضارة كأجزاء من سلسلة واحدة هي الحقل التاريخي والمجتمع الإنساني، وعليه فإن التاريخ عبارة عن الإنجازات الإنسانية في شتى الميادين متبادلة ومتوارثة بين الحضارات تتناقلها الأجيال وتكررها التجارب[2].

فتوينبي ينطلق بخلاف المؤرخين في تحديد مجال الدراسة التاريخية ويرى "... أن المجتمعات الأعظم اتساعا في الزمن والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة أو أية جماعات سياسية أخرى هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية، المجتمعات لا الدول هي الوحدات الاجتماعية التي يجب أن يعنى بها دارسوا التاريخ"[3].

فمن هذه المقدمة تبدو دراسة توينبي دراسة مغايرة لما سبقوه، بل وأكثر من ذلك فهي دراسة مقارنة، لأنه يقرر أن الوحدات الاجتماعية التي تمتاز بخصائص معينة، وتجتمع لها أطور وأرقى الحضارات هي وحدها الكفيلة بأن تعد عينة للدراسة التاريخية.

ونفى الاعتقاد السائد بأن التاريخ في تقدمه يتبع خطا مستقيما كالتقسيم الأوروبي للتاريخ إلى ثلاثة أقسام (قديم، وسيط ، حديث)، فهو الوحيد من فلاسفة التاريخ والحضارة في الغرب الذي اعتمد

(1) محمد زيان عمر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته، ديوان المطبوعات الجامعية، ط4، 1403هـ1983م، ص138.

(2) محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص97.

(3) أمينة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي ،وأرنولد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د.ط، 1989، ص74.

معظم البواعث والعوامل في تفسيره لحركة التاريخ باستعماله المنهج التجريبي، وكان يرى أن الدين هو العامل الوحيد الذي يمثل في حركة التاريخ التقدم الصاعد[1].

وبعد عملية الدفاع وإبعاد شبه كلي لكل العمليات التفسيرية يصل توينبي إلى نظرته لشكل الحضارة في "فكرتي التحدي والرد عليه" فيرى أن حركة الإنسان وتفاعله مع محيطه مرتبط بالتحدي الطبيعي والبشري، وما يترتب عنه من استجابة، وبالتالي فهو يرجع تطور الحضارة إلى عاملين أحدهما جغرافي والآخر تاريخي، هذا أن العاملان يشكلان تحد للمجتمع الذي يرد بدوره بتغيير الظروف الطبيعية وطرد المستعمر، هذه الاستجابة إما تدفع المجتمع إلى الأمام أو الانتكاس إلى الوراء[2].

ب/ تصور التاريخ في منظور المفكرين المسلمين:

كان علم التاريخ في بداية الأمر عند المسلمين علما مستقل الشخصية، واضح الخصائص لأنه نشأ على نفس الأصول التي قام عليها علم الحديث، وهي الضبط والدقة والأمانة وتحري الصدق، فبدأ علم التاريخ عند المسلمين بالسيرة النبوية وهي ذاتها حديث طويل حديث نبوي، واهتم المفكرون المسلمين بدراسة التاريخ اهتماما كبيرا، فنجد من بينهم: العلامة ابن خلدون[3] ومالك بن نبي اللذين اهتما بدراسة تاريخ المجتمع الإسلامي وحضارته

1/ ابن خلدون (732هـ-808ه)

(1) محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص99.

(2) ينظر: أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1994، ص269.

(3) عبد الرحمن محمد بن خلدون: ولد بتونس 1332م 732هـ، من عائلة إشبيلية ، درس اللغة والقرآن والفقد على والده ثم على أساتذة مختلفين، مال إلى الفلسفة مدة من الزمن، ثم أهملها، توفي سنة 1406م 808هـ، عن عمر يناهز 74 سنة، من مؤلفاته كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، المقدمة.

إن أول تعريف يشد الباحث العربي في التاريخ هو ما ذكره عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته من أنه : "فن عزيز المذهب جم الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم الفائدة في ذلك لمن يروقه في أحوال الدين والدنيا"[1].

فيلاحظ من خلال التعريف أن ابن خلدون ألحق صفة الفن بالتاريخ مبتعدا عن كونه علما، غير أن إضافة كلمة شريف الغاية تشير إلى الفائدة المتوخاة منه.

ويقول ابن خلدون عن التاريخ: "إذ هو في الظاهر لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى" والعبارة تفيد أن التاريخ مجرد أخبار وحوليات وتقويم، ثم يقول : "وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها"[2] ومن هذا يفهم أن التاريخ نوعان ظاهر وباطن، فالظاهر يشير عادة إلى ما هو ظاهري خارجي وهو أخبار الدول بينما يشير الباطن منه إلى ما هو باطني أي الكشف عن الحقيقة يهدف استخلاص العبر.

ويرى ابن خلدون أن الحركة التاريخية تخضع إلى التعاقب الدوري، وهذا ما يتجسد في المراحل التي تمر بها الدولة، حيث يرى أن للدولة أعمار طبيعة كالشخص فعمر الدولة غالبا ما يساوي أعمار ثلاثة أجيال في الطور الأول لدولة يصرف جيلها كل جهده لبنائها والمحافظة عليها بذواتها وعصبيتها، وفي الطور الثاني يتم الانتقال من البداوة إلى الحضارة ويعيش جيله في الترف الذي خلفه لهم الجيل الأول كما تتضاءل صورة العصبية لهذا الجيل، أما الجيل الثالث فيصبح عبئا على الدولة لفقدانه العصبية وانغماسه في الترف وهذا ما يجعله يتعرض لهجوم خارجي لا

(1) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ 1993م، ص8.

(2) أحمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1994م، ص09.

يستطيع معه المقاومة وتسقط الدولة في الجيل الرابع الذي يبدأ من جديد في البناء والتشييد.

ويقول ابن خلدون بالحتمية التاريخية ويؤكد أن ما حدث هو سنة الله في خلقه فهرم الدولة يعتبر أمر طبيعي شبيه بهرم الإنسان[1].

ويرى ابن خلدون أن فن التاريخ لا بد أن يتميز بالصرامة والموضوعية التي تناط عادة بالمعارف العلمية القائمة على الاستقصاء والتأمل وطلب الحقيقة،[2] لأن الغاية والهدف من التاريخ هو تزويد الإنسان بأحكام تمكنه من أن يفهم معنى الأحداث الحاضرة في ضوء خبرته بالماضي، بل وإلقاء الضوء على المستقبل.

2/ مالك بن نبي (1325-1393هـ/ 1905م-1973م)

إن حركة التاريخ عند مالك بن نبي مرتبطة بحركة الإنسان فإذا "تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن الإنسان سكن المجتمع والتاريخ"[3] فالتاريخ يتوقف على فعالية الإنسان بمعنى تفاعله مع التراب والوقت ويكون ذلك في إطار الدين.

اعتمد "مالك" في تفسيره لحركة التاريخ على العالم الإسلامي الذي وصل إلى قمة تطوره في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى غاية معركة صفين التي تعتبر نقطة انفصال إلى غاية عصر ما بعد الموحدين الذي يعتبر بداية الانحطاط، ومنه قسم الدورة التاريخية إلى ثلاث مراحل:

أ- مرحلة ما قبل الحضارة:

أطلق عليها "مالك" مرحلة الغريزة" ويمثلها المجتمع الجاهلي، الذي اضطر إلى الارتحال بحثا عن الغذاء بسبب

(1) المرجع نفسه، ص139-140.

(2) حبيب مونسي: فلسفة القراءة وإشكالية المعنى من المعيارية النقدية إلى الانفتاح القرائي المتعدد، دار الغرب د.ط، د.ت، ص141

(3) خالد السعد نورة: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دار السعودية، ط1997،1م،ص113.

الأراضي الصحراوية التي لم تمده بالغذاء، فاقتصر على الرعي وكان متنقلا لذا لم يمارس نشاطا منتظما ولم يبحث عن أسباب الرفاهية، وفي هذه المرحلة كانت عناصر الحضارة المتمثلة في الإنسان والتراب والزمن غير متفاعلة فيما بينها، فطغى عالم الأشياء على عالم الأشخاص والأفكار، فالأشياء المستعملة بدائية مثل (السيف، الحصان، الخيمة) وكانت تتميز بالسكون "بيد أنها أشياء خامدة وخالية من الفعالية الاجتماعية"[1].

وانحصر عالم الأشخاص على القبيلة، وهذا الانغلاق على نفسه يفسر تأخره أما عالم الأفكار تمثل في المعلقات (المدح، الفخر، الغزل، البكاء...) وفجأة انفتح المجتمع الجاهلي على عصر جديد بدأ بكلمة "اقرأ"، الأمر الذي أدى بهذا المجتمع الذي كان منطويا على نفسه إلى الانفتاح على العالم ليدخل مرحلة جديدة "فشرع بهدم ما بداخله من حدود قبيلة ليؤسس عالمه الجديد من الأشخاص، حيث كل أضحى حاملا رسالته ليبني عالما ثقافيا جديدا تتمحور فيه الأشياء حول الأفكار"[2].

ب- مرحلة الحضارة:

وتسمى أيضا بمرحلة الروح، بدأت بنزول القرآن الكريم، الذي وهب للعالم الإسلامي تماسكا وروحا جماعيا، فجعل من البدوي إنسانا متحضرا واستقر الإنسان على الأرض فأنشأ العلم والفن، وفيما ساهمت الفكرة الدينية في تنظيم سلوك الفرد، الذي كان يغلب عليه طابع الغريزة فكان صداها في النفوس أقوى من الغريزة والعقل، مما جعلها تلقى صدى واسعا في المجتمع الإسلامي الجديد، فتوحدت عدة شعوب متفرقة، كما أنها كانت منبع الأخلاق التي أسست علاقات ووحدت الأفراد وذلك مصداقا لقوله

(1) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بركة بسام، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، د.ط، 2002، ص39

(2) المرجع نفسه، ص40.

تبارك وتعالى **"وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"** [1].

وميز هذه المرحلة توازن العوالم الثلاث (الأشياء، الأشخاص، الأفكار) وكان ذلك نتيجة استغلال الإنسان للتراب والزمن مما أدى بالارتقاء بالحضارة الإسلامية،[2] كما عرفت اتزانا بين الروح والعقل إلى غاية مرحلة صفين التي تعتبر نقطة انفصام في هذه المرحلة فبدأت في التقهقر والانحطاط.

ويرى "مالك" بأن الدين هو المصدر الأساسي لبناء أية حضارة وذلك مصداقا لقوله عز وجل " **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**"[3] فالفكرة الدينية عند "مالك" تحمل مقادير المجتمع كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود"[4] ولكي نحل المشكلة الحضارية يجب تركيب عناصرها الثلاث، ولا يتم التركيب إلا بالفكرة الدينية التي تعتبر العنصر الخالد من شأنها تغيير النفس الإسلامية.

وقد فرق مالك بين صدق الفكرة الدينية وبين فاعليتها، فالدين وإن كان صحيحا يفقد فاعليته بسبب الإنسان، فالفكرة الدينية لها قدرة على تكييف الطاقة الحيوية مقارنة مع أي تشريع مدني، إلا أن هذه الطاقة تتضاءل عندما تترك مكانها للأفكار المكتسبة.

ج- مرحلة ما بعد الحضارة:

هي المرحلة الأخيرة من مراحل دور الحضارة الإسلامية أطلق عليها مالك ابن النبي مرحلة الغريزة، ومصطلح ما بعد الموحدين[5].

---

(1) الأنفال، الآية 64.

(2) خالد السعد نورة: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص119.

(3) المؤمنون، الآية 116.

(4) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، تر: عبيد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ط3، 1986م، ص27.

(5) عصر ما بعد الموحدين: يبدأ هذا العصر بسقوط الدولة الموحدية بعد هزيمة الناصر الدين الموحدي في واقعة حصن العقاب في الأندلس في 15 صفر 609هـ وقد اعتبرت هذه الواقعة نذيرا بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس على السواء، إذ سقطت الدولة الموحدية التي أنشأها عبد المؤمن بن علي الندرومي سنة 524هـ، 1130م، وبعدما انهارت تفككت إمبراطوريتها بين عدة مماليك.

عندما اكتمل انتشار الفكرة الدينية في المجتمع ظهرت مشاكل وضرورات جديدة فظهر العقل لحل هذه المشاكل الحساسة، إلا أن هذا العقل لم يستطع السيطرة على المشاكل بنفس الدرجة التي سيطرت بها الروح من قبل، فأصبح للشيء سلطة على العقل، واتجهت الفكرة نحو الوراء ليجد العالم الإسلامي نفسه في مرحلة ما بعد التحضر[1].

وما يميز الإنسان ما قبل الحضارة عن الإنسان ما بعد الحضارة هو أن هذا الأخير منحل حضاريا لأن الفكرة الدينية لم تعد تضبط سلوكه التي كانت تمده بدلالة ومعنى لحياته، فيجد نفسه غارقا في التخلف والجمود وانعدام الفاعلية، وقد حدد "مالك" أسباب التخلف بعاملين: داخلي يتمثل في القابلية للاستعمار، وخارجي يتمثل في الاستعمار، وقد فرق بينهما بقوله: "فكون المسلم غير حائز على جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته وتحقيق مواهبه ذلك هو الاستعمار، وأما أن لا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده استخداما مؤثرا، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته حتى بالوسائل المتاحة فتلك هي القابلية للاستعمار"[2].

فالعامل الداخلي يتمثل بالأساس في فقدان المجتمع الإسلامي لحيوية الفكرة الدينية وديناميكيتها حيث غدت فكرة ميتة، وما زاد الأمر خطورة استبدالها بأفكار مستوردة وهذا هو "المجتمع الإسلامي اليوم يدفع ضريبة خيانته"[3] مما أفقد العالم الإسلامي العقل التطبيقي، فهو يفتقد إلى الربط بين "العمل والهدف، بين السياسة والوسائل بين الفكرة وتحقيقها"[4].

وعندما تفقد الفكرة فعاليتها، يتجه المجتمع إلى التعلق بالأشياء فيرى المجتمعات المتحضرة من خلال الأشياء، لذلك يلجأ

(1) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص39.
(2) خالد السعد نورة: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص116.
(3) المرجع السابق، ص75.
(4) مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: مسقاوي عمر كامل، عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، د.ط، 2000، ص103

إلى تقديسها وتكديسها معتبرا إياها تساهم في بناء حضارته "الحضارة ليست كومة من الأشياء وإنما هي انسجام بين الأشياء والأفكار"[1].

أما العوامل الخارجية التي زادت من تخلفه هو الاستعمار الذي يعتبره مالك "أفضع تخريب أصاب التاريخ"[2] لأنه حاول القضاء على الفكرة الفعالة وذلك لجانبين:

1- تنفير الرأي العام من أفكار الحركة الإسلامية بجميع الوسائل الصالحة.

2- تنفير الحركة من القضية التي تكافح من أجلها بأن تشعر بعبث كفاحها[3].

غير أنه كان للاستعمار من جهة أخرى جانب إيجابي تمثل في إيقاض إنسان ما بعد الموحدين من غفلته مما نتج عنه ظهور حركة الإصلاح التي كانت تهدف إلى الحفاظ على الحد الأدنى من كرامة المجتمع بإعلانه الحرب ضد النظم البالية مستدلين على ذلك بقوله تبارك وتعالى: **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** "[4].

وبعد عرض دراسة مالك بن نبي للحركة التاريخية وكيف يتصورها نجده متأثرا بابن خلدون وشبنجلر وتوينبي إلا أنه أضاف الفكرة الدينية كعنصر أساسي في تشكيل وتطور الحضارات، ويعلم أن أعظم التغيرات في التاريخ وأعمقها وقعت في أيام ازدهار الفكرة الدينية.

فائدة التاريخ:

(1) مالك بن نبي: الفكرة الإفريقية الأسيوية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ط3، 1992، ص54.

(2) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، د ط، ت 2002، ص112.

(3) مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، تر: مسقاوي عمر كامل، دار الفكر، دمشق، ط 3، د.ت، ص38

(4) الرعد، الآية 11.

لقد امتص التاريخ كثيرا من فروع العلوم، فأصبح مرآة لأعظم نواحي النهضة وميدانا تزدهر في حقله نتائج كثيرة من أنواع المعرفة والثقافة وبهذا الاعتبار قام التاريخ بعدد من الواجبات المهمة مما جعله يحتل مركزا مهما مكنه من استثمار أنواع المعارف، ومن بين فوائده ما ذكره أبو الفرح الأصفهاني[1](356هـ) في مقدمته للأغاني :"إن القارئ إذا تأمل ما فيه(التاريخ) من الفقر ونحوها لم يزل متنقلا من فائدة إلى فائدة، ومتصرفا منها بين جد وهزل، وآثار وأخبار، وسير، وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها، وتحتاج الأحداث إلى دراستها"[2].

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله بيان فائدة التاريخ: "علم التاريخ يزيد العقل"[3] ويفيد في ضبط الأوقات والأحوال عما يحصل بسبب الكذب فيه من الاختلال، فالتاريخ يزود الإنسان بأحكام تمكنه من أن يفهم معنى الأحداث الحاضرة في ضوء خبرته الماضية، بل حق إلقاء الضوء على المستقبل، لأنه من عرف التاريخ كان كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها، وباشر الأحوال بنفسه، فيغزر عقله[4] وقد قال تعالى على لسان إبراهيم: "

(1) أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم عبد الرحمن بن مروان بن أبي العاص القرشي الأموي الكاتب الأصبهاني ،صاحب كتاب الأغاني ،أصبها ني الأصل بغدادي المنشأ ولد عام 284ه،كان يحفظ الشعر والأخبار والأحاديث والآثار، له مصنفات عديدة منها: كتاب الأغاني الذي وقع الاتفاق على أنه لم يعمل في بابه مثله ،التعديل والإنصاف، كتاب دعوة التجار.توفي في يوم الأربعاء رابع عشر ذي الحجة سنة 356ه ببغداد.ينظر : محمد بن أبي بكر بن خلكان :
- وفيات الأعيان وإنباء الزمان ، تح: إحسان عباس ،دار صادر بيروت،د.ط،د.ت، مج3، ص307.
(2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الثقافة بيروت، لبنان، ط6، 1404هـ1983م، مج1، ص12.ينظر:
- عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، دون ط، 1416هـ 1986م، ص29.
(3) عبد اللطيف شرارة: الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، ط2، 1983، ص18.
(4) عبد المقصود باشا: محاضرات في التاريخ والمؤرخون، جامعة الأزهر د.ط، 1405هـ1985م، ص29.

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ" [1] وامتن الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: **" وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ"** [2].

فبواسطة التاريخ يستطيع الإنسان أن يحصل على التجربة والمعرفة من الحوادث التي وقعت في الماضي، لأنه ما من أمر يحدث إلا وقد تقدم نظيره لقوله تعالى: **"إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ"** [3].

ويبين السيوطي فائدة التاريخ فيقول: "الجاهل بالتاريخ راكب عمياء وخابط خبط عشواء، وينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر"[4]، إلا أن هناك من يرى أن للتاريخ فوائد دنيوية وأخروية، فمن الفوائد الدنيوية: أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر استقبحوها وأعرضوا عنها، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها وما يتبعهم من الذكر الجميل، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليها"[5] أما الفوائد الأخروية فتتمثل في التخلق بالصبر والتأني وهما من محاسن الأخلاق، فإن العاقل إذ رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم، ولا ملك معظم، بل ولا أحد من البشر، علم أنه سيصيبه ما أصابهم وينوب ما أنابهم[6] ولهذه الحكمة ورد القصص ووقع الاستدلال بالتاريخ في الكتاب العزيز قال تعالى: **" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ "**[7] فاستدل على بطلان دعوى اليهود في في إبراهيم أنه يهودي، ودعوى النصارى أنه نصراني بقوله: "

---

(1) الشعراء، الآية 84.
(2) الزخرف، الآية 44.
(3) ق، الآية 37.
(4) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ، ط1، 1423هـ-2004م، مج1، ص11.
(5) ليقي بروقنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، دار الغرب، د.ط، (1397هـ-1977م)، ص40.
(6) علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: أبو الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1415ه -1995م، مج 1، ص11.
(7) آل عمران، الآية 65

وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ آل عمران "[1] وقوله تعالى: **" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ "**[2] وعليه فمزية التاريخ وفائدته ممدوحة عند كل إنسان، لأنه من اجل العلوم قدرا وأرفعها منزلة وذكرا وقد شحن الله به كتابه العزيز، فوظيفة التاريخ وفائدته تتمثل في اعتباره أنه لون من ألوان التفكير الذي ارتبط بالإنسان من خلال حرية الإرادة التي تنعكس هذه الحرية بتعبير كانط: "من المعنى الميتافيزيقي إلى مظاهر أفعال الإنسان وفقا لقوانين الطبيعة، ويعمل التاريخ حينئذ على سرد هذه المظاهر ومحاولة البحث في الدور التي تقوم به حرية الإرادة الإنسانية"[3].

ب_ وجود الصراع الفكري الذي يقسم الأفراد والجماعات البشرية إلى "ملل ونحل"[4] تعليلا في التاريخ، ففكرة الصراع تنطلق أساسا من الخلاف ومرد الخلاف لا يتأتى فهمه إلا من جذوره التاريخية.

ج_ بناء القوة في الأمة: ففكرة القوة في أية أمة من الأمم ومحاولة بنائها يستدعي حتما الرجوع إلى التاريخ خاصة عندما يتعلق الأمر بوجود قوى أخرى تريد أن تحدد لأمة من الأمم أسلوب نمط التفكير، فالرجوع إلى التاريخ "... طبيعي في كل آن ومكان ولكن يشتد في عهود النهضات القومية عندما تهب الشعوب لشد الوحدة والقوة، فنجد أن من أهم مقومات وحدتها تقاليدها الماضية"[5]. فالانشداد إلى الماضي والتاريخ يحفظ الهوية والوعي والوعي لأنه إرث الإنسان يحتمي داخله عندما يجد نفسه معرضا لأي تهديد خارجي.

---

(1) آل عمران، الآية 65.
(2) يوسف، الآية 111.
(3) عبد الرحمن بدوي: النقد التاريخي، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، د.ت، ص281.
(4) ملل: الملّة: الشريعة والدين وملل مجموعة من الديانات كاليهودية، النصرانية وغيرها.
نحل: نحل: انتسب إلى مذهب أو قبيلة كذا بمعنى: الانتساب إلى الجماعات والقبائل
(5) قسنطين زريق: نحن والتاريخ، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1963، ص17.

تمهيد :

أولى القرآن الكريم للمسألة التاريخية أهمية كبرى من خلال الدعوة إلى استمداد العبرة واستخلاص القانون من قصص الأنبياء مع أممهم، وتأكيده على ضرورة الوعي التاريخي من خلال الرؤية الاستقرائية للتاريخ البشري لقوله تعالى: **" قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ "**[1] غير أن مصطلح التاريخ لم يرد في روايات العرب القديمة ولا في شعرهم الجاهلي،ولم يذكر صراحة في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية الشريفة.

وفي الحقيقة فإن كلمة "الأخبار" عند العرب هي المادة الأولية للتاريخ والمرحلة الأساسية في بناء تاريخهم، بالرغم من افتقارها إلى عنصر التطور الزمني الذي هو عماد البناء التاريخي.

وتتضح صلة مفهوم الأخبار بمفهوم التاريخ في التراث العربي الإسلامي فيما أورده القرآن الكريم في مواضيع عديدة، حيث ذكر مصطلح الأخبار وهو يفيد معنى التاريخ، وذكر مصطلح الخبير وهو يفيد معنى العارف بشؤون أحوال الناس بما في ذلك ماضيهم[2].

لهذا نجد القرآن الكريم يدعو الناس إلى النظر في أخبار الأمم السالفة، وأخبار الأنبياء السابقين، ليأخذوا منها العبرة والعظة، في بناء حاضر هم وضمان مستقبلهم،لذلك خصصت مساحة كبيرة من القرآن الكريم للمسألة التاريخية التي تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة، تندرج بين العرض المباشر، والسرد القصصي الواقعي لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر

(1) آل عمران، الآية 137.

(2) بشار قويدر: مناهج التاريخ الإسلامي، دار الوعي الجزائري، ط1، 1413 هـ-1993م، ص9-10.

الزمان والمكان، مرورا بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم، وبالصيغ الحضارية التي لا حصر لها[1].

لهذا نجد القرآن الكريم تعرض للتاريخ من جوانب مختلفة فمثلا قصص الأنبياء التي تمثل الجزء الأعظم من المادة القرآنية، فدرست من ناحية تاريخية،تناولها المؤرخون واستعرضوا الحوادث والوقائع التي تكلم عنها القرآن الكريم، وكذلك بحثت هذه المادة من جانب آخر، وهو منهج القصة في القرآن، بينت مدى تمتع هذا المنهج بالأصالة وقوة الإبداع، وما تزخر به القصة القرآنية من حيوية، وحركة وأحداث [2].

فالقرآن الكريم حين يستعرض قصص الأنبياء، أو خلق الإنسان، يتضح من خلال ذلك القصص مفهوما للتاريخ، له مغزاه الغيبي وفلسفته الروحية. فهو في هذا المجال يربط بين حاضر الحياة الإنسانية وماضيها على أساس الصلة الوثيقة بين الله تعالى والمجتمع الإنساني، ويتخذ من اتجاه التاريخ صورة مفصلة تنعكس عليها معالم الصراع بين الخير والشر.[3] فالتاريخ أصبح في مفهومه الإسلامي مسرحا للنزاع بين عنصري الحق والباطل في مفهومهما الروحي، وأنه دائما متجها بالضرورة نحو قيم الحق والخير، مهما يكن من أمر الباطل والشر في حياة الفرد والمجتمع لقوله تعالى **"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا"** [4].

ومن ثم فإن القرآن الكريم يرفض كليا أن ينظر إلى التاريخ نظرة سطحية تافهة، على أنه مجرد وصف للماضي، وتغذية الحاجة الإنسانية الخالدة إلى العجائب، بل يؤكد على أنه توجيه

---

(1) عبد الوهاب محمود المصري: قراءة في كتاب التفسير الإسلامي للتاريخ، مجلة التراث العربي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، العدد 98، السنة 25، جمادى الأول 1426هـ، خزيران 2005، ص163.

(2) محمد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن، دار التعارف، د.ط، 1409هـ-1989م، ص46.

(3) أحمد إبراهيم الشريف: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي،د.ط، د.ت، ص165.

(4) النور، الآية 55.

لحركة الإنسان والوقوف عليها، وفق ضوابط وسنن بغية السير نحو المستقبل، وبناء عالم لا تدمره تجارب الخطأ والصواب، التي دمرت أمما وجماعات وشعوب[1].

إذن فالقرآن الكريم سن للبشرية ضوابط وقوانين تحميه من التفكك والتشتت والدمار، من أجل التقدم صعودا لأداء الخلافة في الأرض وعمارة الكوكب الأرضي.

(1) البشير الهاشمي مغلي: التاريخ الإسلامي في مخبر المقاربات المختلفة، دراسة في المنهج النقدي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة،دار الهدى، عين مليلة، العدد الأول، محرم، 1423هـ أفريل 2002م، ص193، 197.

المبحث الأول : السنن التاريخية في القرآن وخصائصها

هناك أساس ثابت لمجموعة من القوانين يخضع لها التاريخ، يمكن بواسطتها في الوقت نفسه تفسيره، وربط حوادثه ربط العلة بالمعلول، وقد يشير القرآن إلى ذلك في معرض الأخبار عن أحوال الأمم السابقة معقبا على مصيرها بأنه "سنة الله"، فدمار الأمم وانهيار الدولة له تبريره الموضوعي في القرآن[1] فالظلم مثلا من أسباب الانتقام الإلهي بإهلاك أمم بأسرها، أو دول بأكملها لقوله تعالى: **"وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ"**[2] ،فالقرآن الذي لقنه الله للمسلمين بشأن بعض القصص المتعلق بأحوال السابقين، ليس كتابا تاريخيا يريد أن يعطينا مجرد معلومات عن شعوب أو أشخاص مضوا، وإنما أراد أن نعتبر بأحوالهم ونتفقه في القوانين والسنن الثابتة التي لا تحيد، وذلك بغرض الاتعاظ والانتفاع في حياتنا الحاضرة. فما هي هذه السنن في مفهوم القرآن الكريم؟ وكيف تتحكم في مسيرة التاريخ وحركته؟.

المطلب الأول : ماهية السنن التاريخية

- تمهيد :

السنة هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الكون والتي يستفيد منها الكائن الإنساني، إنها نظام هذا الكون المفتوح بما فيه والمسيرة له وفق ما أراده الخالق المبدع جل شأنه، ومجالها الواسع السماوات والأرض والكون والإنسان[3] أو بعبارة أخرى هي

(1) محمد كمال جعفر: الإنسان والأديان، دار الثقافة، قطر الدوحة، ط1، 1406هـ1985م، ص229.

(2)هود، الآية102.

(3) إبراهيم بن علي الوزير: على مشارف القرن الخامس الهجري، دراسة في السنن الإلهية والمسلم المعاصر، دار الشروق، ط3، 1402هـ1982م، ص07.

مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها[1].

من خلال هذين التعريفيين نخلص إلى أن المقصود بالسنن منها ما يخص الكون، ومنها ما يخص الإنسان كفرد من أفراد هذا الكون المسخر للإنسان، وهو مضبوط بقوانين ثابتة ومطردة تحكم حركة الحياة، وحركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية.

ومن أمثلة السنن الكونية قوله تعالى: **" فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا"** [2].

وقوله أيضا: **" ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"** [3] إلى غير ذلكم من السنن التي أشار إليها القرآن الكريم، وأوردتها السنة النبوية المطهرة لقوله عليه الصلاة والسلام: **"لتتبعن سننا من قبلكم شبرا بشبر وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا حجر ضب تبعتموهم"**[4].

ومن هنا كان لزاما على الفرد أن يسعى جاهدا للكشف عن هذه القوانين المطردة ويتعامل معها ليبرز أسرار هذا الكون فيكون دليلا على قدرة وإبداع الخالق، ودليلا على صدق رسالة الإسلام.

أما في القرآن الكريم استعملت كلمة سنة مفردة، ومجموعة للدلالة في الغالب على القوانين الثابتة، التي أقام الله عليها نظام الخلق باعتبار أنها الطريقة المعتادة، التي يجري عليها القدر الإلهي في سياسة الخلق عامة وفي عقاب الطغاة والمكذبين خاصة[5]، كما في قوله تعالى **"قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ"** [6].

---

(1) أحمد محمد كنعان: أزمتنا الحضارية في ضوء الكتاب والسنة، كتاب الأمة، ط1، د.ت، ص52.
(2) فاطر، الآية 44.
(3) الأنفال، الآية 54.
(4) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم، "تتبعن سنن من كان قبلكم" رقم الحديث 7320، ج4، ص1447.رواه مسلم،كتاب العلم، باب الألد الخصم، رقم الحديث:220، ج16، ص219.
(5) محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص19.
(6) آل عمران، الآية 137.

فالقرآن الكريم يعد المكان الوحيد الذي تجمعت فيه سنن الحياة، التي لن تتغير ولن تتحول إلا بمشيئة الله، والتي لا تستقيم الحياة إلا باتباعها من أجل بناء عالم لا تدمره تجارب الخطأ والصواب التي دمرت أمما سابقة لقوله تعالى: **"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا"**[1] فالآية تؤكد ضرورة التتبع لأحداث التاريخ والوقوف على مصارع الغابرين من أجل استكشاف السنن التي سنها الله ومن ثم الاعتبار بها[2].

إن الساحة التاريخية كأية ساحة من الساحات الكونية الأخرى الفيزيائية أو الفلكية زاخرة بمجموعة من الظواهر التي تضبطها سنن وقوانين فما هي هذه السنن التي تحكم الساحة التاريخية؟ وما هي خصائصها؟ وما موقف القرآن منها؟

- مفهوم السنن التاريخية في القرآن الكريم

قد يتوهم لدى البعض أنه لا ينبغي للقرآن الكريم أن يتحدث عن السنن التاريخية، لأن البحث في سنن التاريخ بحث علمي، كالبحث في سنن الطبيعة أو النبات، وهذا ليس من مهمة القرآن الأساسية، إذ أن دوره الأول والأخير هو إخراج البشرية جمعاء ونقلها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، من الضلالة إلى الهدى.

ومع هذا فإنه لا نستطيع أن ننكر أن القرآن الكريم أشار إلى بعض الحقائق العلمية وعرضها، لتؤكد على البعد الإلهي للقرآن بقدر ما يمكن أن يثبت به الإعجاز الرباني لهذا الكتاب، الذي أحاط بماضي البشرية وحاضرها.

---

(1) فاطر، الآية 45.

(2) سيد قطب: في ضلال القرآن، دار الشروق بيروت، لبنان، ط 35، 1425هـ2005م، مج 5، ج22، ص2950.

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم كتاب هداية، إلا أنه يوجد فرق جوهري بين الساحة التاريخية وبقية الساحات الكونية الأخرى، فالسنن التاريخية ونواميسها الثابتة أمر مرتبط أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية للعالمين، لذا نجد القرآن الكريم قدم لنا أصول منهج متكامل في التعامل مع تاريخ البشرية[1] فكيف صور لنا القرآن الكريم هذه السنن؟

قبل الحديث عن تصورات القرآن الكريم وعطاءاته للسنن التاريخية، لا بد أولا أن نقدم مفهوما أو تصورا لهذه السنن.

فالسنة التاريخية هي مجموعة القوانين الثابتة التي يخضع لها البشر في تصرفاتهم وأفعالهم في الحياة ، وما يترتب على ذلك من نتائج معينة في الدنيا والآخرة.[2]يتضح من خلال التعريف أن محور السنن التاريخية هو البشر وما يتعرض له في هذا الكون من صراعات ونزاعات اجتماعية مختلفة، ولهذا نجد القرآن الكريم حين تحدث عن هزيمة المسلمين في غزوة أحد، تحدث عن أناس بوصفهم بشر تتحكم فيهم القوانين التي تتحكم في الآخرين، فقال تعالى:" **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** "[3] أي: إن هزمتم يوم أحد فقد هزم المشركون يوم بدر وكنتم كفافا، وتلك الأيام ستكون عبرة للناس ومتداولة بينهم، وهذه سنة من السنن التاريخية[4]، فهذا الخطاب كان موجها لجماعة من المسلمين لبيان لهم أنه متى توفرت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ كان هناك نصر محققا ومتى تخلفت هذه الشروط وخالفت منطق سنن التاريخ تخلف النصر وكانت هناك هزيمة وخسارة.

---

(1) توفيق الغلبزوري: خصائص السنن التاريخية، مجلة الحضارة الإسلامية، المصطلح العلمي في التراث الإسلامي، العلوم الشرعية والإنسانية، العدد الثالث، رجب 1418هـ نوفمبر 1997م، ص185.

(2) عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1414هـ-1994م، ص5.

(3) آل عمران، الآية 140.

(4) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، د.ط، 1997، مج2، ج4، ص100.

فقد بين القرآن الكريم في كثير من الآيات هذه السنن ففي قوله تعالى: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"**(1) فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يوجه كلامه إلى جماعة من البشر، على أنهم إذا لم يكونوا قادرين على تحمل مسؤولية نصر دينه وإقامة شريعته، ولم يقوموا بدورهم التاريخي، فإن الله قادر على استبدالهم والإتيان بمن هم أشد قوة وأقوم سبيلا(2) لقوله تعالى: **"إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ "**(3) ومعنى ذلك أن سنن التاريخ سوف تعزلكم وتأتي بأمم أخرى قد تهيأت لها الظروف الموضوعية الأفضل لكي تقوم بدورها(4).

ومن خلال ما عرضنه يتضح لنا أن البحث في سنن التاريخ مرتبط كل الارتباط بكتاب الله تعالى، وأن الساحة التاريخية عامرة بالسنن كغيرها من الساحات الكونية الأخرى، لهذا نجد عددا كبيرا من الآيات القرآنية قد استعرضت تلك السنن، سواء عن طريق السير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم الغابرة والاستفادة من أخطائهم، أو استقراء التاريخ، أو بالتفكير في آيات الله فمن الآيات التي أعطيت فيها الفكرة العامة، فكرة أن التاريخ له سنن وضوابط نذكر على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: **" لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ"**(5) ومعنى ذلك أن لكل أمة أجل، وأن الله قدر آجال أحوال الأمم، ومن ذلك أجل حلول العقاب بهم، فلا يحل العقاب بهم إلا عند مجيء ذلك الأجل ولا يقدر أحد على تغيير ما حدده الله(6).

---

(1) المائدة، الآية 59.
(2) ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، مج2، ص271.
(3) النساء، الآية 133.
(4) محمد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن، ص53.
(5) يونس، الآية 49
(6) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج5، ج11، ص190.

والأمة في هذه الآية تعني مجتمع ينشئ ما بين أفراده مجموعة من العلاقات والصلات تضبطه قوانين وقواعد، فهذا المجتمع له أجل وميقات محدد، مثله مثل الفرد، فكذلك الأمم أيضا لها آجال محددة وهذه الآجال غير قابلة للتغيير.

وكذلك قوله تعالى: **" أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ"**[1] فالواضح من هذه الآية أن الهالكين أهلكم الله بذنوبهم التي اقترفوها، وفي هذا الإخبار تقرير حقيقة وتأكيد على سنة تاريخية مطردة وثابتة، أن الذنوب تهلك أصحابها وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم، وهذه سنة ماضية ولو لم يرها أحد في عمره القصير، ولكنها سنة تخضع لها الأمم حين تفشو فيها الذنوب، فإنها تهلك إما بقارعة من الله تعالى كما يحدث في هلاك الأمم السابقة، وإما بالانحلال البطيء الذي يسري في كيان الأمة وهي توغل في متاهات الذنوب، وتظن أنها في أمان من الهلاك[2].

فالآية تتحدث عن سنة من سنن التاريخ، وتؤكد على ضرورة التتبع لأحداث التاريخ واستقرائه، من أجل استكشاف السنن ومن ثم الاعتبار بها والذي يؤكد ذلك قوله تعالى: **" أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ"** [3]، ففي هذه الآية يتضح لنا مدى حرص الله سبحانه وتعالى على إلزام المسلمين بالسير في الأرض، واتخاذ عبر الغابرين من الأمم، بغية الوصول إلى أهدافهم وفق ما شرعه الله سبحانه وتعالى[4]، ولا يتم ذلك إلا بالإيمان والعمل الصالح والوقوف في جبهة الحق.

---

(1) الأنعام، الآية 07.
(2) سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم، مج2، ج7، ص1038.
(3) غافر، الآية 21.
(4) المصدر نفسه، مج5، ج24، ص3077.

ومما سبق يتجلى لنا أن القرآن الكريم أكد أن الساحة التاريخية لها سنن وضوابط، شأنها شأن الساحات الكونية الأخرى، ونبه العقل البشري إلى أنه كل ما يقع من حوادث ومجريات على هذه الساحة لا يأت صدفة، إنما يقع وفق سنن وقوانين عامة وصارمة، ولكي يستطيع الإنسان أن يكون فاعلا مؤثرا فهو مدعو إلى ضرورة الكشف عن هذه السنن ، والتعرف على قوانينها بغية تسخيرها والانتفاع بها.

وبعد استعرضنا لبعض الآيات القرآنية التي بينت حقيقة السنن التاريخية، يمكننا أن نستنتج من تلك الآيات أن السنن التاريخية كغيرها من السنن الأخرى لها خصائص ومميزات، فما هي هذه الخصائص؟ .

المطلب الثاني: خصائص السنن التاريخية

تتصف السنن التاريخية شأنها شأن السنن الكونية الأخرى بمجموعات من الخصائص والمميزات، أكد عليها القرآن الكريم وبينها في كثير من المواضع ومن بين هذه الخصائص، نذكر على سبيل الأهم لا الحصر الإطراد، والشمولية والربانية شأنها في ذلك شأن القاعدة القانونية[1] هذا ما سأحاول عرضه في هذا المطلب.

أ- الإطراد:

لغة من أطرد الشيء إطرادا، تبع بعضه بعضا وجرى، تقول أطرد الأمر أي استقام، والأنهار تطرد أي تجري[2].

أما اصطلاحا فيقصد بإطراد السنن، تتابع حدوثها كلما توافرت الشروط وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها[3]، فالشيء الذي يؤكد على أن السنة هي القانون المطرد الذي لا يتخلف، أنه كل ما يقع في الكون من حوادث ومجريات ليس وليد الصدفة أو العبث، وإنما وقع وفق نظام وقانون عام دقيق وثابت،

(1) عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص14.
(2) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، د.ط، 1995م، ص163.
(3) محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، دار الانتفاضة للنشر، الجزائر، د.ط، د.ت، ص99.

أي كل شيء قد جاء بحساب، و كل أمر قد جرى بمقدار، وكل موجود لا بد له من أسباب وقوانين، يخضع لها مصداقا لقوله تعالى: **"إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا "**[1]، فدورة الأرض اليومية مثلا حول نفسها، والتي ينتج عنها تعاقب الليل والنهار، لا تسير صدفة، وإنما وفق نظام ثابت لا يتغير ولا يتوقف. وهذا أيضا ما يحدث في التاريخ البشري بمعنى أنه لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف، وإنما تحكمه سنن ونواميس كالتي تحكم الكون، أي أن الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة، وإنما وفق قوانين، لذا نجد القرآن الكريم قاوم الفكرة التي كانت سائدة قبل نزول الوحي والتي فسرت أحداث التاريخ على أساس الصدفة، وأكد أن الحوادث التاريخية لها سنن وقوانين، وما على الإنسان سوى أن يكتشف هذه القوانين والتعرف عليها من أجل أن يكون إنسانا فاعلا. فالقرآن الكريم يؤكد على اطراد السنن التاريخية وعدم تخلفها في الحالات العادية التي تجري فيها السنن الكونية الأخرى، لأن سنن الله التاريخية في المجتمعات البشرية ما هي إلا امتداد طبيعي لسننه في الميادين الكونية الأخرى، فهي في حقيقة أمرها سوى أسباب واحدة تصدر عن إرادة واحدة[2].

فتأكيد القرآن الكريم المستمر على إطراد السنن التاريخية، هو تأكيد على الطابع العلمي للقانون التاريخي، بمعنى أن السنة التاريخية ليست علاقة عشوائية، بل هي علاقة ذات طابع علمي موضوعي، لأن أهم ما يميز القانون العلمي عن بقية الفروض والمعادلات هو الإطراد والتتابع وعدم التخلف[3] وهذا ما أكدت عليه العديد من الآيات القرآنية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: **"وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا"**[4]، ففي هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى

(1) الطلاق، الآية 3.
(2) مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ط3، 1425هـ2004م، ج1، ص232.
(3) توفيق الغليزوري: خصائص السنن التاريخية في الرؤية الإسلامية، ص186.
(4) الكهف، الآية 59.

أن هلاك الأمم السالفة والقرون الخالية لم يكن عبثا أو صدفة، وإنما كان بسبب كفرهم وعنادهم، وأن الهلاك كان محددا بمدة معلومة ووقت معلوم لا يزيد ولا ينقص، فكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم لأنكم قد كذبتم رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

ويتضح ذلك أيضا في قوله تعالى: "ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** [2]، فقوله تعالى: "وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم" أي ما ظلمناهم بإهلاكنا إياهم، ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيب رسلنا وكفرهم بهم[3].

وقوله تعالى: **"وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ"** بمعنى أن العذاب ليس مقتصرا على أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا، بل إن سنة الله في أخذ الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك القرى فقط، لأن الله تعالى لما حكى ذلك بين أن كل من كذب برسلنا فإنه سوف يلقى مالقته القرون الظالمة من هلاك[4].

ب- الربانية:

الخاصة الثانية التي أكدت عليها النصوص القرآنية، ربانية السنة التاريخية، وارتباطها بالله سبحانه وتعالى، بمعنى كل قانون أو سنة من سنن التاريخ هو تعبير عن إرادة الله سبحانه تعالى، فتأكيد القرآن الكريم على ربانية السنة التاريخية وعلى طابعها الغيبي، حتى يبين للإنسان أن الاستفادة من القوانين الموضوعية

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج3، ص1784.
(2) هود، الآية: 100-101.
(3) فخر الدين البكري الرازي: التفسير الكبير، تح: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية القاهرة، د.ط،د.ت، مج9، ج18 ص45.
(4) المصدر نفسه، ج18، ص46.

والاستعانة بمختلف السنن التي تتحكم في الساحة التاريخية من أجل تفسير حادثة معينة ليس انعزالا عن الله سبحانه وتعالى لأن الله يمارس إرادته من خلال هذه السنن، فهي في حقيقة الأمر سوى تعبيرا عن إرادته وحكمته في هذا الوجود[1].

غير أن هناك من يتخيل له أن الطابع الغيبي الذي أسبغه القرآن الكريم على السنة التاريخية يبعد القرآن عن التفسير العلمي للتاريخ، ويجعله ينحو منحى التفسير الإلهي للتاريخ، والذي مثلته مدرسة من مدارس الفكر اللاهوتي، على يد عدد كبير من المفكرين المسيحيين، الذين فسروا التاريخ تفسيرا لاهوتيا مثل أغسطين[2] الذي يرى أن إسباغ الطابع الغيبي على السنة التاريخية، يخرج التاريخ من إطاره العلمي، لأن الاتجاه اللاهوتي حينما يفسر الحادثة التاريخية فإنه لا يرجعها إلى الأسباب و العوامل التي أحدثتها وإنما يربطها مباشرة بالله تعالى بخلاف القرآن الكريم فإنه يربط الحادثة التاريخية بكل ما يتعلق بها من أسباب وشروط، وأن هذه الأخيرة من فعل الله سبحانه وتعالى وحكمه[3].

فالقرآن الكريم حينما يظفي الطابع الغيبي الرباني على السنة التاريخية، فإنه يريد أن يبين أن السنة التاريخية ليست خارجة عن قدرة الله، وإنما هي تعبير عن إرادته، وتجسيد لقدرته الإلهية، وكل ذلك من أجل أن يتقوى إيمان الإنسان، وتبقى الصلة وثيقة وقائمة بين العلم والإيمان فينظر إلى السنن التاريخية نظرة إيمانية، وفي نفس الوقت ينظر إليها نظرة علمية ومنطقية.

---

(1) باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن، ص68.

(2) أغسطين: (354-440م)يعرف بالقديس ، ولد في طاجسطا سوق أهراس بالجزائر على الحدود التونسية من أم مسيحية ، وأب وثني ،تلقى دراسة وافية في البيان،اشتغل عقله النشط بحب الفلسفة ، في عام 391م عين كاهنا، ثم عين في 395مأسقف لمدينة ايبونا رجيوس (مدينة عنابة)، توفي في 28أوت 440م له عدة مؤلفات منها كتاب بعنوان فائدة الإعتقاد ، كتاب آخر عنوانه في الثالوث.ينظر الموسوعة الفلسفية المختصرة ، تر: فؤاد كامل ، جلال العشري عبد الرشيد الصادق، مراجعة: زكي نجيب محمود، دار القلم ،بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص88-91

(3) توفيق الغلبزوري : خصائص السنن التاريخية في الرؤية الإسلامية، ص190.

ومن النصوص القرآنية التي بينت ذلك نذكر قوله تعالى: **"يَا أَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ"**[1]، ففي هذه الآية يبين أن النصر لا يتحقق إلا بالثبات، لأن الثبات يعتبر قوة معنوية لطالما كانت هي السبب الأخير للنصر بين الجيوش والأفراد، و هدا الثبات يحتاج إلى عنصر آخر هو ذكر الله أثناء القتال، وأن النصر بيد الله.

يتضح من ذلك أن الفلاح منوط بأمرين هما الثبات وذكر الله لأنهما السببان للفوز بالنصر في الدنيا ثم نيل ثواب في الآخرة.[2] فسنة النصر تتحقق بتحقق عواملها وانتفاء عوائقها، وما على الإنسان إلا أن يأخذ بالعوامل ويتجنب العوائق، كما بينها الله تعالى لأنها في الحقيقة تعبير عن حكمة الله وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية.

وكذلك قوله تعالى: **"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ"**[3] ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى للمسلمين بأنهم عليهم أن يأخذوا بعوامل النصر، ويتجنبوا العوائق، ولكن مع هذا يجب أن تكون ثقتهم بالله كبيرة وتوكلهم عليه لا على الأسباب التي باشروها وأعدوها كما أمرهم الله، فيجب أن تبق قلوبهم معلقة بالله ومتطلعة إلى تأييده ومعونته معتمدة عليه وحده وليس على ما باشروه من أسباب النصر[4]، لأن الله عز وجل هو الفاعل للنصر والمسخر له، فالاستعانة بالله والاستغاثة به هي التي جعلت الله يمدكم بالملائكة فتكون بشرى لكم بأنه سينصركم، كما وعدكم.

---

(1) الأنفال، الآية 46.

(2) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، ج2، ص226.

(3) الأنفال، الآية 10.

(4) فخر الدين محمد بن عمر البكري الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ، مج8، ج15، ص109.

ومن هذا يظهر لنا أن الطابع الرباني الذي خصه القرآن للسنة التاريخ ليس بديلا عن التفسير الموضوعي وإنما ربط التفسير الموضوعي بالله وبقدرته تعالى بغرض التوحيد بين العلم والإيمان، فكلما ازددنا علما زاد إدراكنا لقدرة الله وحكمته، وأنه لا يوجد تعارض بين القرآن والعلم.

ج- الشمولية:

لغة من شمل الأمر القوم، يشملهم شمولا، وشملهم عمهم وشمله بالشملة لفه بها[1]- واشتمل عليه الأمر أحاط به.

جمع الله شمله أي ما تشتت من أمره، وأمر شامل أي عام[2].

وشمولية السنن التاريخية، تعني أنها عامة يسري حكمها على الجميع دون تمييز فرد عن فرد أو جماعة عن جماعة، أو عقيدة عن عقيدة، وهذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: " **قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ** "[3] فهذا غير مختص بالأولين، بل تشمل كل الذين كانوا من قبلنا وحتى الذين جاؤوا بعد نزول هذه الآية وهي سائدة إلى غاية يوم البعث والحساب.

فالشمولية من أبرز سمات السنة التاريخية لأنها تنبثق عن المنهج الرباني فهي شاملة لكل جوانب الإنسان والحياة البشرية داخل الساحة التاريخية، هذا ما لا نجده في المناهج التاريخية الوضعية، لأنها تفسر التاريخ بحسب المجتمع الذي تنتمي إليه وبحسب العصر الذي تعيش فيه، ومن ثم تعميمه على الجميع، مما جعل هذه المناهج تفسر التاريخ تفسيرا ضيقا ينطبق على المجتمع الذي عايشته فقط دون أن يعمم على المجتمعات البشرية الأخرى. وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه المدرسة المادية أثناء تفسيرها للتاريخ فهي ترى أن كل تغيير طرأ على العالم المادي ما هو إلا

(1) محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين،دار المعرفة ،لبنان،بيروت ،ط3،د.ت، مج5، ص411.
(2) محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، ص146.
(3) الحجر، الآية 13.

نتاج البيئة الاقتصادية المادية، وهذا العامل الاقتصادي الذي حكم تاريخ أوربا يحكم أيضا تاريخ العالم[1].

إلا أن هذا التفسير قد واجه انتقادات كثيرة بحكم أن أفكار ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة، لأنها ليست في حقيقة الأمر سوى انعكاس للعصر الذي عاش فيه، ولا يمكن لتفسيره أن يكون صالحا للعصور التي تلته، فالمادية التاريخية كنظرية صالحة فقط في المجتمعات الرأسمالية بخلاف القرآن الكريم فإنه قد بلغ من سمو الرؤية التاريخية ما يتخطى بعمقه كل النظريات الحديثة في قراءة التاريخ، لأنه يراعي كل الأسباب والدوافع التي ساهمت في بناء الحدث التاريخي من أجل صياغة السنن والقوانين التي تحكم حركة التاريخ البشري، بالإضافة إلى تقديم خلاصات التجارب البشرية عبرا يسير على هديها أولوا الألباب، من أجل مجاوزة الخطأ الذي قاد تلك الجماعات إلى الدمار والانهيار[2]، وهذا ما أكده القرآن الكريم في العديد من آياته منها قوله تعالى: " **أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ**"[3] أي أو لم يسيروا في الأرض هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة وآثارا في الأرض، ولكن مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم، وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم ردا ولا وقاهم واق[4].

وكذلك قوله تعالى: "**أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ**"[5] أي ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدم من الأمم

(1) توفيق الغلبزوري: خصائص السنن التاريخية في الرؤية الإسلامية، ص 193.
(2) عبد الوهاب محمود المصري: قراءة في كتاب التفسير الإسلامي للتاريخ، ص166.
(3) غافر، الآية 21.
(4) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج4، ص2520.
(5) القمر، الآية 43.

الذين أهلكوا بكفرهم فكلاكما واحد وتعاقبون بنفس ما عوقبوا به الأولون، لأن كل من يعمل سوءا يلقى جزاءه، وهذه سنة الله تعالى وهي شاملة لكل الخلق وعامة فهي غير مقتصرة على فرد دون فرد ولا على قوم دون قوم، لأن الله سبحانه وتعالى يحكم باقي الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة لا تتبدل ولا تتغير ويفعل في الثاني ما فعل بنظيره الأول[1].

وقوله تعالى: **" لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ "**[2] والمراد من ذلك أنه كل من يعمل سوءا يلق جزاءه، لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف عنه[3]، وهذه سنة الله عامة ثابتة ومطهرة ولولا عمومها لما كان هناك معنى في قصص وأخبار الأمم والاعتبار بما حل بهم، لكن لما كان ما جرى لهم وعليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم، حسن ذكر قصصهم وطلب الاتعاظ والاعتبار بها[4].

وخلاصة لما سبق يمكن القول أن السنن التاريخية تطلق على القوانين التي تحكم حركة الإنسان وتتحكم بالدورات الحضارية، إلا أن السنن التاريخية إذا تتبعنا القرآن الكريم لمعرفتها نجدها مترابطة مع غيرها من السنن ارتباطا وثيقا مكونة نظاما كونيا متناسقا يسير في ظله العالم.

تتصف السنن التاريخية كغيرها من السنن الكونية الأخرى بمجموعة من المميزات وهي الإطراد والربانية، والشمولية مما يسهل عملية النظر والتبصر بأحداث التاريخ من أجل أخذ العبرة والإفصاح عن الحقائق.

---

(1) الإمام عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1417هـ1996م، مج9، ج17، ص94.

(2) النساء، الآية 123.

(3) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1393هـ1973م، ج5، ص434.

(4) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص15.

السنن الإلهية لا تحابى أحد من الخلق، مهما زعموا لأنفسهم من مسوغات لأنها عامة ومطردة وشاملة لقوله تعالى "ولن تجد لسنة الله تحويلا".

أن كل ما يقع في الكون من حوادث له أسباب ومسببات تكون قانونا عاما هو في غاية الدقة والشمول بحيث لا يخرج عنه شيء، فكل منقاد وراء هذا القانون وخلق الإنسان والأطور التي يمر بها في بطن أمه يخضع في ذلك كله إلى قانون عام وثابت، هذا ما سنحاول تبيانه في المبحث الموالي.

المبحث الثاني : نشـأة الجنس البشـري

إن موضوع الإنسان من بين المواضيع التي اهتم بها العلماء، والتي عنيت بالعديد من الدراسات المستفيضة شملت مختلف جوانبه فمن الجانب النفسي حاول علماء النفس دراسته، واهتم علماء الاجتماع بدراسته، ودراسة المجتمع الذي يعيش فيه، كما حاول بعض العلماء البحث عن تاريخه وأصله ومصيره بعد الموت، إلا أننا نجد القرآن الكريم قد فصل وأجمل في الحديث عن الإنسان من كل جانب سواء كان ظاهرا أو باطنا كيف لا؟ وهو القصد والغاية، لأنه المناط بالتكليف، فتحدث القرآن عن خلقه وأصل نشأته واستعداداته النفسية، وقدراته التي يملكها والتي أهلته للقيام بالوظيفة التي أوكلت إليه، ويتضح ذلك في سورة السجدة، فقد جمعت صورة مجملة لحقيقة الإنسان من حيث مادة الخلق، وطبيعة التكوين، وبعض الصفات التي ميز بها الله الإنسان عن سائر المخلوقات والتي تجعله قادرا على أداء واجباته ومسؤولياته في هذه الحياة، لقوله تعالى: **"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ"** [1].

فالقرآن الكريم يحفل بالإنسان كما لا يحفل بغيره، فهو يبدأ قبل كل شيء بتعريفه على ذاته وتبصيره بهويته، وتنبيهه إلى أصله، وذلك واضح في أول آية من حيث النزول وهي قوله تعالى: **" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ "** [2] كما أن معظم أوائل الآيات القرآنية من حيث الترتيب الكتابي بدأت هي الأخرى بالحديث عن الإنسان وأنبأته بقصة نشأته فوق هذه

(1) السجدة، الآية 8.
(2) العلق، الآية 2.

الأرض[1]. فما هو أصل الإنسان؟ وما هي مراحل الخلق التي يمر بها؟.

المطلب الأول: النشأة الأولى للإنسان

لقد شغل بال العديد من العلماء موضوع وجود الإنسان على أرضه وأصله، فقامت آراء ونظريات فلسفية و علمية حول مسألة الخلق، ومن بين هذه النظريات نظرية التطور أو مذهب النشوء والارتقاء[2]، والتي ترجع أصل الإنسان إلى سمكة قطع أشواطا هائلة، تدرج فيها من البسيط حتى وصل إلى مرحلة القرد ثم بعد ذلك إلى مرحلة الإنسان.

فمفهوم التطور في رأي هذه النظرية هو الانتقال من البسيط إلى المركب، من البدائية إلى الرقي، في كل من الشكل والتفكير، أو هو تغاير تدريجي من الوحدة النوعية إلى الاختلاط والتكاثر[3].

إلا أن هذه النظرية لقيت انتقادات كثيرة من طرف العلماء المعاصرين، لأنهم بينوا خطأها بسبب وجود حلقة مفقودة بين الإنسان والقرد، وأن العالم داروين اعتمد في فرضيته على المشاهدة الوصفية أي أنه لاحظ ظاهرة التشابه في الكائنات الحية بدءا من الخلية إلى أرقى أنواعها وهو الإنسان[4].

أما القرآن الكريم فله رؤية خاصة في قضية خلق الإنسان، أورده في العديد من آياته مبينا أن أول إنسان خلقه الله سبحانه وتعالى هو آدم عليه السلام، خلقه من الطين المشتمل على التراب والماء، ثم نفه فيه الروح، فأبطل بذلك نظرية التطور.

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، سوريا، ط1، 1982م، ص45.

(2)صاحبها العالم الأوربي داروين الذي زعم أن أصل الأحياء من إنسان وحيوان هو كائن من خلية واحدة ثم تطور إلى خليتين، ثم أربع وهكذا،وأن الإنسان تطور عن القرد لوجود تشابه بينهما في الرأس وغيره من الأعضاء. .

(3) هشام قبلان: مع القرآن في الدين والدنيا، منشور عويدات، بيروت، د ط، د.ت، ص204.

(4) محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، دمشق، ط8، 1424هـ-2003م، ص263.

فالإنسان في نظر القرآن مركب من عنصرين، الأول هو المادة والمتمثل في الطين والثاني الروح، وهذان الآخران ليس منفصلين عن بعضهما بل هما مختلطان فعنصر المادة أو الطين يمثل الجسد ومطالبه البيولوجية، وعنصر الروح يتمثل في الوعي والإدراك[1] وفي ذلك يقول تعالى: **"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"[2]**.

فلولا الروح والإرادة والقدرة الربانية لما وجد الإنسان، فالخالق والموجد إنما هو الله تعالى، أما الطين فهو العنصر الذي وجد فيه الخالق الصفات الملائمة للتفاعل مع طبيعة الأرض التي يعيش فيها ذلك المخلوق.

وقصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم دليل على ذلك، لأنها قصة الإنسان الأول الذي خلق من تراب... وارتقى بالخلق السوي إلى منزلة العقل والإرادة، وقد جاءت معطوفة على قصة خلق السموات والأرض وانتقالاتهم للدلالة على قدرة الله ووحدانيته[3].

وجاء بيان خلق الإنسان الأول في كثير من آيات القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى: **"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ"[4]**، وقد يعبر عن الطين بالصلصال الذي يشبه الفخار فقال تعالى: **"خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ.. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ"[5]** وكذلك قوله تعالى: **"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا**

(1) لطفي بركات أحمد: الطبيعة الإنسانية في القرآن الكريم ومسؤوليات التربية، مجلة المنار، العدد الثاني عشر،السنة السادسة، 1401هـ-1981م، ص47.

(2) سورة ص، الآية 72.

(3) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1986م، مج7، ج3، ص414.

(4) الأنعام، الآية 2.

(5) الرحمن، الآية 14-15.

الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" [1].

ويبدو أن آيات القرآن الكريم ينقض بعضها بعضا وخاصة في قصة الخلق، وذلك لما ذكرت أنه خلق من تراب، وأنه خلق من طين، وحمأ مسنون، وهذا ما ذهب إليه بعض الملاحدة وزعموا أن في القرآن تناقضا، إلا أن هذا التناقض لا يعدو أن يكون مجرد اختلاف في أسلوب القرآن الذي خصائصه إيراد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة تنبهر أمامها أنفاس الفصحاء والبلغاء[2].

فالبيان الإلهي القاطع والإعجاز البياني يثبت أن الإنسان نوع متفرد عن سائر الحيوانات، ميزه الله وفضله وكرمه على كثير من خلقه، وقد اجتهد بعض المفسرين في ترتيب الآيات التي ذكرت خلق آدم عليه السلام فجعلوها سبع درجات[3] بعدد الأطوار التي تتكرر في كل مولود يولد من نسله[4].

أ- فقد قال القرآن في موضع إن آدم خلق **" مِن تُرَابٍ"**[5] فهي إشارة إلى المبدأ الأول.

ب- وفي آخر: **" مِّن طِينٍ "**[6] إشارة إلى الجمع بين التراب والماء.

ج- وفي آخر: **" مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ "**[7] إشارة إلى الطين المتغير بالهواء.

---

(1) المؤمنون، الآية 12-14.

(2) محمد زعراط: الإنسان في القرآن الكريم، مرحلة الخلق نموذجا، الإنسان في الكتب السماوية، مجلة الحضارة الإسلامية،
المعهد الوطني للتعليم العالي، وهران، العدد 4، 1419هـ1998م، ص151.

(3) محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، ط3، 1424هـ-
2004م، ص73.

(4) الاتفاق في عدد الأطوار وليس في الأطوار نفسها.

(5) آل عمران، الآية 59.

(6) السجدة، الآية 7.

(7) الحجر، الآية 28

د- وفي آخر: " **مِّن طِينٍ لَّازِبٍ**"[1] إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبوله الصورة.

ه- وفي آخر: " **مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**"[2] إشارة إلى يبسه، وسماع صلصة منه.

و- وفي الآخر: " **مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**"[3] وهو الذي قد أصلح بالمرور من النار، فصار كالخزف.

ز- ثم أخبر سبحانه بعد هذا، عن نفخ الروح فيه قال تعالى: "**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ** "[4] وبذلك تم تم خلقه.

وهذا ما ذكرته السنة النبوية لقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر خلق آدم عليه السلام: "**إن الله خلق آدم من تراب، فجعله طينا، ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم، ثم نفخ فيه من روحه، وكان أول ماجرى فيه الروح بصره وخياشمه فعطس فقال: الحمد لله، فقال الله، يرحمك الله**"[5].

ويكفي الإنسان هذا القدر الذي جاء به القرآن الكريم لمعرفة أصله والذي يتأكد من خلاله الإعجاز القرآني، وهو قدر كاف يتسلح به العقل لصد النظريات التي تظهر بين الحين والآخر عن هذه المرحلة من مراحل أطوار الخلق.

وقد جاء ذكرها في آيات كثيرة جعلها الله دليلا قاطعا على إعادة البعث، ومبعث إيمان للفكر والقلب لقوله تعالى " **مَّا لَكُمْ لَا**

---

(1) الصافات، الآية 11.
(2) الحجر، الآية 28.
(3) الرحمن، الآية 14.
(4) الحجر، الآية 29.
(5) أخرجه السيوطي في الدر المنثور، ج1، ص118 ونسبه إلى ابن سعد وأبي يعلى وابن مردويه، رواه البيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة.

تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا"[1]، فما هي هذه الأطوار؟ هذا ما سنستدرجه في المطلب الموالي.

المطلب الثاني : مراحل خلق الإنسان

إن قضية خلق الإنسان من الأسرار الإلهية العظيمة التي يقف عندها المتأمل، فقد بدأ الله خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من ماء مهين، وبالرغم مما وصل إليه التقدم العلمي في المجال الطبي، إلا أنه لم يستطع أن يضيف أو يختصر عما ورد في القرآن الكريم بخصوص أطوار النمو الإنساني.

وسوف نتوقف عند كل طور من الأطوار كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسنبدأ بأول طور.

أ- النطفة:

لغة: الماء الصافي قل أو كثر والجمع نطاف، والنطفة يعبر بها عن ماء الرجل[2]. قال تعالى: **"طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ"**[3] قال ابن جرير: "النطفة كل ماء قليل في وعاء كان ذلك ركية أو قربة أو غير ذلك"[4].

وردت النطفة في القرآن والسنة النبوية في مواضيع كثيرة، ففي القرآن الكريم ذكر لفظ النطفة اثني عشر مرة[5]وجاءت في القرآن والسنة النبوية على ثلاث معان :

الأول: النطفة المذكرة: وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المني.

---

(1) نوح، الآية 14.

(2) الراغب الأصفهاني معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح:نديم مرعشلي ،دار الكتاب العربي،د.ط، 1392هـ 1976م، ص 517.

(3) المؤمنون، الآية 13.

(4) أبو جعفر محمد بن حرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1324هـ، مج12، ج29، ص162.

(5) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا، د.ط، 1984، ص705، مادة "نطف".

الثاني: النطفة المؤنثة: وهي البويضة التي يفرزها المبيض مرة في الشهر.

الثالث: النطفة الأمشاج: وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي والبويضة عندما يتم التلقيح[1].

والمراد بالنطفة **اصطلاحا**: هي مجموعة الخلايا التي تصدر من الرجل وتعوم في السائل الموجود داخل رحم المرأة، ثم تتسابق لتنال خلية الأنثى الواحدة، وأحد هذه الحيوانات المنوية الذي يصل أولا يخرق بويضة الأنثى ويدخل فيها ويمتزج بها وهذه أول عملية تكوين الجنين[2].

فالنطفة هي اختلاط ماء الرجل والمرأة وهذا ما أجمع عليه المفسرون، أن النطفة هي ماء الرجل والمرأة يختلطان ويمتشجان وهي أصل الإنسان[3].

وعبر عنها القرآن بعدة معان منها: ماء يخرج من الصلب والترائب[4]، أنها ماء مهين أي حقير وضعيف[5].

وهذه النطفة تدخل الرحم بوصفها نطفة لا علقة، وتحتفظ بهذا الوصف فترة من الوقت قبل أن تنجح في التعلق فتأخذ اسم العلقة لقوله تعالى : **"طِين ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً "**[6]، فالقرار المكين هو الرحم، وذكره بعد النطفة يشير إلى معنى دقيق، فلولا أن الرحم قرار مكين ما تمكنت النطفة من التعلق به، وما أخذت بالتالي اسم العلقة، فالرحم كان قرارا مكينا قبل أن تحل به النطفة، فلما حلت به تمكنت من التعلق واكتساب الوصف الجديد[7].

---

(1) محمد علي البار: علم الأجنة القرآني، مجلة المنهل، العربية السعودية، العدد 491، مج 3، 1412هـ-1991م، ص251.

(2) عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان ، ط11، 1981م، ص61.

(3) ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، مج12، ج29، ص162.

(4) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص2262.

(5) المصدر نفسه، ج3، ص3018

(6) المؤمنون، الآية 13-14.

(7) محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس، ص108.

والرحم قرار مكين فعلا لما يوفره للعلقة من استقرار وحماية وهنا يكمن الإعجاز القرآني الكريم، الذي اكتشفه الأطباء وبينوا أن الرحم مجهز في تكوينه وفي خصائصه بما يمكن للنطفة أن تستقر فيه لأنه يحتوي على مخابئ لها عجيبة خلقت لذلك خلقا، ومواد لوقايتها وحفظ الحياة عليها والدفاع عنها خوفا من أن تقتلها المواد الحامضة، وهذا كله في كلمة قرار مكين[1].

ثم يشير الله تعالى إلى الطور الثالث في خلق الإنسان حسب الترتيب القرآني، الذي يقابله الأسبوع الثاني في علم الأجنة الحديث، فما هو هذا الطور؟

ب- العلقة

قال تعالى: **" ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً"**[2]

والعلقة **لغة** التشبث بالشيء، يقال علق الصيد في الحبالة أي تشبث بها.

والعلق الدم الجامد ومنه العلقة التي يكون منها الولد[3]، قال تعالى:**" خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ "** [4].

وقد وردت في القرآن ست مرات، خمسة مواضع فيها وردت كلمة علقة والموضع السادس وردت كلمة علق.

أما **اصطلاحا**: هي ما يتعلق بجدار الرحم في أول مرحلة من مراحل تكوين الجنين بعد تلقيح بويضة الأنثى بنطفة الرجل.

أو هي مجموعة الخلايا التي تنقسم إليها البويضة بعد تلقيحها، تظهر على سطحها نتوءات تصلها بحائط الرحم عن طريق هدم خلاياه، لفتح تجويف صغير تعلق فيه[5].

(1) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوفيقية، د.ط، د.ت، ص136.
(2) المؤمنون الآية13.
(3) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص355.
(4) العلق، الآية 2.
(5) عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، ص61.

وجاء في زاد المسير لابن الجوزي[1] رحمه الله: أن العلقة دم عبيط جامد، وقيل سميت بذلك لرطوبتها وتعلقها بما تمر به "التعلق بجدار الرحم"[2] فالجزء الأول من كلامه –رحمه الله- قريب من الصواب، لأن العلقة ليست دما لكنها تغوص في الدم أما الجزء الثاني من كلامه فهو صحيح لأن ميزة هذه المرحلة هي التعلق بجدار الرحم.

فالعلقة في المفهوم العلمي هي البيضة المخصبة أو الملقحة وما يليها من مراحل لازمة لإتمام الانغراس في البطانة الرحمية[3].

ففي هذه المرحلة يكون اهتمام البويضة كله متجها للتعلق بجدار الرحم، لأن حياتها وتغذيتها متوقف على هذا التعلق، فلولا هذا التعلق ما تمت المرحلة الأخرى فهو منعطف استحق أن يفرده القرآن الكريم بالذكر رغم الإيجاز الذي عرضت به قصة خلق الإنسان فيه، فهذا هو السر في تسمية التحول للنطفة علقة وهنا يكمن الإعجاز القرآني، ولقد قرأت آية خلق الإنسان على طبيب مسيحي ونبه إلى الدقائق التي فيها فقال: "آمنت بما أنزل على محمد"[4] وتأخذ البويضة في هذه المرحلة شكل دودة عالقة، ويبدو الجنين في هذه المرحلة مثل العلقة، ويكون الجهاز الدوري قد تم تكوينه ويعتمد الجنين في التغذية على الدم، ووصفت هذه المرحلة بالعلقة وهو أجدر وصف لها نظرا لما يلي:

- انغراز البويضة المخصبة في الرحم
- تكوين الغشاء المشيمي

---

(1) ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي عبيد الله بن جعفر القرشي التميمي فقيه حنبلي الملقب بجمال الدين الحافظ،كان إمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنف في فنون عديدة منها زاد الميسر في علم التفسير في أربعة أجزاء، وله في الحديث أيضا منها:المنتظم في التاريخ ،توفي في الثاني عشر من رمضان سنة 597هـ ببغداد ودفن بباب حرب.ينظر أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ،مج3، ص140.

(2) أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير،تح: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، بيروت،لبنان، ، ط1407،1هـ 1987م، ج5، ص279.

(3) كريم حسنين: دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 2000م، ص70.

(4) مصطفى صادق الرافعي: البلاغة النبوية، ص136.

ـ تكون المعلاق أو الساق الموصلة ليصبح الحبل السري فيما بعد.

ويمكن القول بخصوص العلقة أن البويضة الملقحة بمجرد وصولها بخلاياها المنقسمة إلى الرحم، تبدأ في عملية البحث عن الغذاء، وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة، عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا وتبدأ عمارة الجسم الإنساني، إذ تتوالى خلايا الجهاز العصبي، وأخرى العضوي وغير ذلك من أطراف الجسم الإنساني[1]، ويلي هذا الطور طورا آخرا وهو المضغة، وهذا ما سنعرضه في العنصر الموالي.

ج- المضغة:

لغة: تأتي بمعان متعددة منها: شيء لاكته الأسنان، ثانيا مضغ الأمور يعني صغارها، وثالثا ذكره عدد من المفسرين أن المضغة في حجم ما يمكن مضغه[2].

وتعني أيضا قطعة من اللحم قد ما يمضغ ولم ينضج[3]، قال الشاعر: "يلجلح مضغة فيها أنيض"، أي غير منضج، وجعل اسما للحالة التي ينتهي إليها الجنين بعد العلقة لقوله تعالى: " **فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا**"[4] وقال أيضا: " **مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** " [5].

(1) أحمد عبده عوض عبده: الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين العلم والكون والإيمان ،المكتبة القيمة للطباعة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص237.

(2) عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرطبي،مج 12، ج 12، ص 6.

(3) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص489.

(4) المؤمنون، الآية14

(5) الحج، الآية 5.

أما **اصطلاحا**: فهي عبارة عن نمو العلقة وتنوع خلاياها وتميز بعض أجزائها عن البعض الآخر[1]، وهنا يبدأ طور التكوين وتظهر آثار العظام في المضغة.

وإطلاق اسم المضغة على هذا الطور من أطوار الجنين يأتي محققا للمعاني اللغوية لأنه يتعلق بالشكل الخارجي للجنين ويمكن إدراك ذلك فيما يلي:

- أنه عندما تظهر الكتل البدنية خلال الأسبوع الرابع تقريبا وهي بداية هذه المرحلة يبدو الجنين وكأنه مضغة صغيرة عليها آثار، وكأن أسنانا انغرزت فيه ثم قذفته وبالتالي فهي التي تعطي شكل الجنين مضغة.
- يكون الجنين قد تميز بشكل هلال أو حرف (C) لأن ظهره ينحني ويصحب مقوسا.
- في هذه المرحلة يصبح طول الجنين 1سم وذلك مطابق للوجه الثاني من معاني كلمة مضغة وهو الشيء الصغير من المادة، وهذا المعنى ينطبق على حجم الجنين الصغير، لأن جميع أجهزة الإنسان تتخلق في مرحلة المضغة، ولكن في صورة براعم وبالتالي فهو مضغة لأن مضغ الأمور: صغارها والإنسان بجميع أجهزته في هذه المرحلة طوله 1سم[2].

وما يميز هذه المرحلة أنها بداية التطور الحقيقي للتكون العضوي، أي بداية تكون الأعضاء وهي تبدأ في اليوم العشرين على شكل كتل لحمية صغيرة تمثل البدايات الأولى للأعضاء فتظهر منطقة الرأس والجذع، والنقط الأولى لبداية الفقرات والأطراف، كأنها مواضع الأسنان في لحم ممضوغ مما يعطي للجنين خلالها وصف مضغة.

---

(1) عفيف عبد الفتاح طبارة:: روح الدين الإسلامي، ص29.

(2) محمد علي البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط3، 1402هـ-1981م، ص276.

د- مرحلة العظام واللحم

قال تعالى: **"فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا "**.[1]

مرحلة العظام المشار إليها بقوله : **"فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا"** وفي هذه المرحلة يبدأ في تكوين العظام وتميزها داخل المضغة واكتساء العظام بالعضلات.

ففي نهاية الأسبوع الرابع أغلب الأعضاء والأنظمة العضوية تكون قد بدأت في الظهور، والجنين قارب في الشبه صورة الجنين التام، حيث تتميز فيه الرأس والرقبة والجذع والأطراف.

فهذه المرحلة متداخلة مع المرحلة السابقة، لأن كل ما يحدث من تطورات يقع في أسبوع واحد فقط، فالعظام تبدأ في الظهور في الوقت الذي لازال الوصف الغالب على الجنين هو المضغة، وتظهر العضلات في وقت لازالت فيه العظام لم تكتمل، كما يظهر الجلد والعضلات لم يكتمل نموها بعد، فيكون القلب والجهاز الهضمي والأعضاء الداخلية، متقدمة في الظهور والنمو، بينما باقي الأعضاء في صورة كتل لحمية صغيرة جدا، وهذا يعطي للجنين منظر المضغة، ثم تظهر العظام لتحمي هذه الأعضاء الداخلية، وتنمو تبعا لنموها، ثم تأتي العضلات لتكسو العظام، ويقوم الجلد بكسوة العضلات[2].

وخلال الأسبوع الثامن تكون الملامح الإنسانية أكثر وضوحا في الجنين ويكون الجنين قد نما بشكل كبير، ويمضي التكوين حسب الترتيب القرآني أي أنه كلما نمت الأعضاء والأحشاء الداخلية نمى الهيكل العظمي لها، وكلما نمت العظام تمت تبعها العضلات، ثم نما فوقها الجلد، وقد جاءت مرحلة الطين والنطفة والعلقة معطوفة بـ"ثم" بينما جاء العطف بين المضغة والعظام

(1) المؤمنون، الآية14

(2) محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم، ص122.

واللحم بـ"الفاء"، لأن هذه الأخيرة متداخلة جدا، وحروف العطف هنا تتضمن دقة لغوية وعلمية معا[1].

وبما أن المرحلة الموالية هي مرحلة نفخ الروح، فإن كل ما سيحصل بعد انتهاء التكوين الأولي للأعضاء، هو التهيؤ والاستعداد لهذا النفخ، وبعد ذلك يصير خلقا آخرا ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب[2] وعليه فإن لحظة نفخ الروح تعد بمثابة التأكيد الرسمي، على أن الجنين قد صار خلقا آخر مختلفا عن أي كائن حي أخر " **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**" [3].

وقد جاء تفسير الخلق الآخر في التفاسير، مشيرا إلى الجانبين الجسمي والروحي معا، قال ابن جرير رحمه الله: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب من قال: وبنفح الروح فيه يتحول عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تحول أبوه آدم بنفخ الروح في الطينية التي خلق منها إنسانا، وخلقا آخر غير الطين الذي خلق منه"[4].

فبنفخ الروح يستكمل الجنين شطر حقيقته كإنسان، وينزل بعد ذلك إلى الدنيا، إن قدر له ذلك، خلقا آخر، لا يشبه أحدا غيره فله صفاته النوعية، وله روحه لا يشترك معه فيها أحد.

وبهذا فإن القرآن الكريم يتفق في إشارته إلى الأطوار التي يمر بها الجنين مع ما توصل إليه اليوم علم الأجنة من حقائق حديثة، يتأكد من خلالها إعجازه وصدق الرسول الكريم فيما بلّغ عن ربه سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه وتعالى كرم ابن آدم ورفع من شأنه، وخلقه على أكمل الهيئات وأحسنها مقابل أن يكون خليفته في الأرض وفق الضوابط والسنن التي جاءت في القرآن الكريم، فما هي هذه المهمة التي أوكلها الله تعالى للإنسان؟ هذا ما سنحاول تبيانه في المبحث الموالي.

---

(1) المرجع نفسه، ص131.
(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص1982.
(3) المؤمنون، الآية 14.
(4) أبو جعفر بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، مج09، ج18، ص09.

المبحث الثالث :الاستخلاف في القرآن

إن سر تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان، وتمييزه بصفات فريدة دون غيره من سائر المخلوقات، يرجع إلى المهمة التي حددتها العقيدة الإسلامية، والتي من أجلها وجد الإنسان، وكلف بتحقيقها في مسيرة حياته منذ آدم عليه السلام إلى يوم تقوم الساعة، وتلك المهمة هي الخلافة في الأرض، التي اشرأبت إليها أعناق الملائكة وتشوقت إليها أنفسهم، فلم يعطوها ومنحها الله للإنسان، وقد اقترن ذكرها في القرآن الكريم بخلق آدم عليه السلام لقوله تعالى: **"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً"**[1] وقوله : **" وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"** [2] فما معنى هذا الاستخلاف أو الخلافة؟ وما حقيقتها؟

المطلب الأول: مفهوم الاستخلاف

إن لفظ الاستخلاف مصدر، ورد منه عدة ألفاظ أخرى منها الخليفة، وخلائف، وكذا الخلافة، ولهذه المفردات معاني مختلفة بين المفسرين والمفكرين ولكي أحصي معنى الاستخلاف لا بد التطرق إلى تعريف هذه الألفاظ.

1- لغة:

استخلف، يستخلف، استخلافا أي جعله خليفة

استخلف فلانا من فلان: جعله مكانه

ويقال خلّفت فلانا أخلفه تخليفا،واستخلفه: أناجعلته خليفتي.

خليفة: ج خلفاء، مستخلف: أنت خليفتي في إدارة شؤوني أثناء غيابي

والخليفة: الذي يستخلف عمن قبله، والجمع خلائف

وقال البعض: الخليفة هو السلطان الأعظم

(1) البقرة، الآية 29.
(2) الأعراف، الآية 128.

قال الفراء في قوله: " **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ**"[1] جعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خلائف كل الأمم، وقال : وقيل خلائف في الأرض يخلف بعضكم بعضا[2].

الخلافة: النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته، وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض[3]، قال تعالى: " **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ** "[4].

2- في القرآن الكريم

ورد لفظ الاستخلاف في القرآن الكريم، وهذا بالرجوع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن أربع عشر مرة بألفاظ وصيغ مختلفة كما يلي[5]:

أ/ خليفة: وردت بصيغة المفرد مرتين في :

1- قوله تعالى: " **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** "[6].

2- قوله تعالى: " **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**"[7].

ووردت بصيغتي الجمع سبع مرات كما يلي :

* **خلائف**: وردت أربع مرات في الآيات التالية

---

(1) الأنعام، الآية 167.
(2) أبو الفضل ابن منظور: لسان العرب، مج 9، ص83، مادة خلف.
(3) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص157.
(4) فاطر، الآية 39.
(5) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص239-240.
(6) البقرة: الآية 29.
(7) ص، الآية 25.

1- قوله تعالى: " **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**" [1].

2- قوله تعالى " **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**" [2].

3- قوله تعالى: " **وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** " [3].

4- قوله تعالى: " **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا** [4].

* **خلفاء:** وردت ثلاث مرات في الآيات التالية

1- قوله تعالى: " **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** " [5].

2- قال تعالى: " **وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** " [6].

3- قوله تعالى: " **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** "[7].

ب/ الاستخلاف: وردت أربع مرات بصيغة الفعل في الآيات التالية:

1- قوله تعالى: " **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** " [1].

(1) الأنعام، الآية 167.
(2) يونس، الآية 14.
(3) يونس، الآية 73.
(4) فاطر، الآية 39.
(5) الأعراف، الآية 68.
(6) الأعراف، الآية 73.
(7) النمل، الآية 64.

2- قال تعالى: **"فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ"** (2).

3- قال تعالى: **"قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"** (3).

4- قوله تعالى: **"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ"** (4).

هذه مجموعة الآيات التي جاءت في القرآن الكريم ورد فيها لفظ خليفة، خلفاء، خلائف، وكذا لفظ الاستخلاف.

3- اصطلاحا :

تستند مسألة الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض، إلى الآيات القرآنية التي تصرح بذلك، وبخاصة قوله تعالى: **"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"** (5).

ولم يكن هناك خلاف بين المفسرين في مسألة الاستخلاف بحد ذاتها، ولكنهم اختلفوا في معناها كما يلي:

أ- عند المفسرين:

اختلف المفسرون في معنى خلافة الآدميين، فهل آدم هو أول من سكن الأرض ثم ذرتيه من بعده، أي هم خليفة الله في الأرض أم هم خلفاء لجنس آخر كان قبلهم، وفي ذلك رأيين :

---

(1) الأنعام، الآية 134.
(2) هود، الآية 56.
(3) الأعراف، الآية 129.
(4) النور، الآية 53.
(5) البقرة، الآية 29.

الرأي الأول: ذهب هذا الفريق إلى القول بأن الآدميين خلفوا جنسا سابقا، كان يسكن الأرض قبلهم، وهم الجن، فعن ابن عباس قال: "أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، فقاتلهم إبليس ومن معهم حتى ألحقهم بجزائر البحور، ثم خلق آدم فأسكنه إياها"[1]، فلذلك قال إني جاعل في الأرض خليفة.

فعلى هذا القول يكون الله تعالى قد جعل خليفة من بعد الجن يخلفونهم فيها فيسكونها ويعمرونها، ويتضح من قول هذا الفريق أن آدم ليس هو أول حيوان ناطق على وجه الأرض، وإنما هو خلفا لجنس آخر كان موجودا قبله.

الرأي الثاني: وذهب هذا الفريق إلى أن آدم عليه السلام هو أول مخلوق على وجه الأرض، واختلف المفسرون في هل آدم هو مستخلف وحده في الأرض، أم هو وذريته ممن بعده، وفي ذلك قولين:

أولا: ويرى هؤلاء أن آدم هو وحده المستخلف في الأرض، وخليفة فيها وهي رواية عطاء بن السائب في قوله تعالى: **"إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء "** [2] يعنون به آدم عليه السلام[3].

ثانيا: ويرى هؤلاء أن الخليفة هو آدم وذريته من بعده، وهو القول الراجح عند أكثر المفسرين، لأنه قيل في تأويل قوله تعالى: **" إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً "**[4] أي خلفا يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، وعلى هذا فليس المراد بالخليفة آدم عليه السلام بل هو وذريته وعن بن مسعود، وابن عباس قولهما

(1) أبو جعفر بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، مج1، ج1، ص156.
(2) البقرة، الآية 29.
(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج1، ص168.
(4) البقرة، الآية 29.

فيها أن المراد آدم ومن يقوم مقامه في الحكم بين العباد بأوامر الله وأحكامه[1].

إذن فالمراد بالخليفة في الآية لا يقصد به آدم عينا، إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" فإنهم إنما أرادوا من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو فهموا من الخليفة أنه يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، وقول الملائكة ليس على وجه الاعتراض وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك[2].

وهذا الرأي يميل إليه أغلب المفسرون، ولا خلاف فيه بين القدامى والمحدثين، بل الاختلاف بينهم حول فكرة الاستخلاف وكيف ينظر إليها كل فريق؟ فالمحدثين يعتبرون استخلاف الله للإنسان دليلا على ما خصه من عناية وتكريم وتعظيم، فربطوا مهمة الاستخلاف بمفهوم الأمانة في قوله تعالى: " **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** "[3].

فقد نظر القدامى إلى معنى الأمانة وفسروها على أنها الطاعة والفرائض التي يتعلق بآدائها الثواب وبتضييعها العقاب[4]، وقال القرطبي: الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال[5] وهو قول الجمهور.

أما المحدثين ومنهم سيد قطب فنظر إليها وفسرها تفسيرا خاصا، فاعتبر الأمانة هي المسؤولية التي ينبغي أن يتحملها المسلم، تجاه نفسه ومجتمعه وعالمه، واستشهد بقوله تعالى:

---

(1) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري،
عبد الغال السيد إبراهيم، دار الكتاب الإسلامي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط2، د.ت، ج1، ص227.
(2) المصدر السابق، ج1 ص166.
(3) الأحزاب، الآية 72.
(4) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص2348.
(5) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص162.

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"[1]، فاعتبارها أمة وسطا لها وظيفتها الضخمة في هذه الأرض ومكانها العظيم في هذه البشرية، ودورها الأساسي في حياة الناس إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتبدي فيهم رأيا فيكون هو الرأي المعتمد[2].

ويتضح من قول سيد قطب، أن الإنسان هو وحده المؤهل لتحمل الأمانة، وأن هذه الأخيرة هي مسؤولية في غاية الخطورة.

ولعل اختلاف النظرة بين القدامى والمحدثين في مسألة الاستخلاف والأمانة يعود إلى وضعية الأمة، وأمانة الخلافة كيف كانت، فالقدامى عندما فسروا القرآن، كانت الخلافة موجودة في يد أناس أمناء وبالتالي نظروا إلى الأمانة على أنها الطاعة والحدود، أما المحدثين فقد عاشوا أوضاعا خاصة للأمة التي أصبحت على غير عهدها، ففسروا الأمانة على أنها المسؤولية تجاه النفس والمجتمع والعالم، لأنهم يرون أن خلافة الإنسان عن الله عز وجل تقتضي أن يكون همه الأكبر ترقيه نحو مستخلفه، واقترابه منه ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل.

إذن فالنظرة القرآنية، تجعل الإنسان بخلافته في الأرض، عاملا مهما في نظام الكون، لأن خلافته مرتبطة بالعمل والإبداع ومجانبة الإفساد في الأرض وتلقي القيم والشرائع عن الله تعالى والتي تجعل الإنسان يقف دائما بمواجهة خالقه كخليفة مفوض عنه لإعمار العالم[3].

فحقيقة الإنسان في هذا الكون ووظيفته هو القدرة على العمارة والإصلاح وإسعاد البشرية، والارتقاء بها من مدارج الحيوان إلى سمو الإنسان ورفعته كما كرمه الله تعالى.

---

(1) البقرة، الآية 142.
(2) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ج2، ص130.
(3) عبد الوهاب محمود المصري: قراءة في كتاب التفسير الإسلامي للتاريخ، مجلة التراث العربي،دمشق ، ص168.

ب- عند المفكرين:

لها معاني مختلفة ومتقاربة، فعرفها الكثير من العلماء على أنها رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، أو بأنها خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين[1] وعرفها ابن خلدون: على أنها "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[2].

وعرفها الماوردي بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[3].

وعرفها المودودي فقال: "إن تصور الخلافة الذي جاء به القرآن الكريم هو أن ما يناله الإنسان على وجه الأرض من طاقات وقدرات ليس إلا هبة من الله تعالى، ولقد جعل الله الإنسان في منزلة يستخدم فيها الهبات والعطايا الممنوحة له من الله في أرضه وفق مرضاة الله، وعلى هذا فالإنسان ليس هو السلطان المالك الأصلي نفسه، وإنما هو خليفة المالك الأصلي، غير أن هذه الخلافة لا تكون صحيحة مالم تتبع حكم المالك الأصلي"[4]، فمعظم التعاريف تتفق على أن الخلافة هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، ويقدمون أمور الدين على أمور الدنيا لأن أمور الدنيا تتبنى على أمور الدين فهي الأساس الذي ترتكز عليه أمور الدنيا.

---

(1) ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1995م، ص119.

(2) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص151.

(3) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية،، تح: سمير مصطفى رباب، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د.ط، 1422هـ2001م، ص13.

(4) أبو الأعلى المودودي: الخلافة والملك، دار الشهاب، د.ط، 1998، ص19-20.

المطلب الثاني: مواطن الاستخلاف

استخلاف البشر في الأرض نوعان: استخلاف عام، واستخلاف خاص.

أ- الاستخلاف العام:

هو استخلاف البشر في الأرض باعتبارهم مستعمرين فيها، وقد بدأ هذا الاستخلاف بآدم عليه السلام ومن بعده ذريته، فهم جميعا مستخلفون، أما الاستخلاف الخاص، فهو الاستخلاف في الحكم وهو نوعان؛ استخلاف الأمم واستخلاف الأفراد.

استخلاف البشر: ومعنى ذلك أن البشر وجدوا على الأرض تكريما لهم، ليعمروها وفق النواميس العادلة لخالقهم وخالق كل شيء، ولكي يكونوا مستخلفين ومؤتمنين على الأمانة الثقيلة التي أثقلت كاهل الجمادات في الكون[1] لقوله تعالى " **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**"[2]، وقد منحهم حق التسلط على ما في الكون للانتفاع به، بما فيه من خيرات في حدود أمر الله ونهيه حتى يكون آية عجيبة على عظمة الخالق المبدع.

ففكرة الخلق هي لعبادة الله وعمارة الأرض بما يرضي الله تعالى ويقيم شرعه الذي يعدل بين عباده على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ولكي يحقق معنى الاستخلاف على أحسن وجه أودع الله في الإنسان صفات وملكاته والتي تعتبر من مستلزمات الاستخلاف، وهي من باب التكريم الإلهي لبني البشر نذكر منها ما يلي:

1- تكريمه بخلقه:

(1) خالد فائق العبيدي: القوانين القرآنية للحضارات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ2005م، ص89.

(2) الأحزاب، الآية 72.

كيان الإنسان يتكون من عنصرين هما المادة والروح، وهذان العنصران ليس منفصلين بل هما مترابطان، إذ الله تعالى خلق الإنسان بيده من طين ثم نفخ فيه من روحه، بخلاف المخلوقات الأخرى التي خلقها بكلمة "كن"[1] وفي ذلك يقول تعالى: **" إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"** [2].

فكل من عنصري المادة والروح في كيان الإنسان من التكريم الإلهي، ضف إلى ذلك خلقه في أحسن الهيئات وأكملها لقوله تعالى: **" لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"** [3]. أي سوي البنية وكامل النشأة.

فالإنسان بعنصره الروحي يعرف الله تعالى ويقترب منه، فيقتبس من تعاليمه أوامر الاستخلاف، ثم ينكفئ إلى الأرض مسرح استخلافه، فيكون عنصره المادي عنصر تنفيذ للخلافة في جانبها العمراني، فيما يبقى عنصر الروح حاديا باستمرار لمسيرة الخلافة بما ينزع به دوما إلى الله تعالى تقربا منه بأنواع الفضائل والعبادات[4] مصداقا لقوله تعالى **"هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ "** [5].

إذن فالله تعالى جهز الإنسان بصفات فريدة ومتنوعة، وضع فيه من كل جنس قدرا معينا، وجعل من مجموع هذه الصفات مركبا نادرا لا مثيل له، وركبه من عناصر أساسية وهي العقل والروح والجسد، وجعلها منسجمة مع بعضها البعض، بحيث أي انحراف في إحداها يؤثر في باقي العناصر، وكل ذلك من باب

(1) لطفي بركات أحمد: الطبيعة الإنسانية في القرآن الكريم، مجلة المنار، ص47.
(2)ص، الآية 72
(3) التين، الآية4.
(4) عبد المجيد عمر النجار: الإنسان في القرآن، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، العدد 3،
ذو الحجة 1414هـ، جوان 1994م، ص50.
(5) هود، الآية 60.

الحكمة الإلهية، وهو أن جعله خليفة في الأرض واستعمره فيها من أجل بنائها وفق ضوابط الشريعة التي جاءت في القرآن الكريم.

2- منحه القدرة العقلية والإدراك:

لقد خص الله سبحانه وتعالى الإنسان نعمة العقل دون غيره من المخلوقات، وذلك لأن العقل يمثل التسامي والتفكير، والوعي والإدراك.

فيولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ والبكاء، فهو يتفق مع الحيوان في إشباع دوافعه الفطرية كالجوع والعطش، ليعيش حياته، وفي الدافع الجنسي التوالد، ليحفظ بقاءه إلا أنه يمتاز عن تلك الملكة الحيوانية بالعقل الذي وهبه الله إليه. فمن أجل تحقيق الغاية التي أوكلها الله إليه، فقد خلق له العقل المفكر كي يخطط ويرسم ليتمكن من تسخير المخلوقات التي سخرها الله له، ليستفيد من قدراتها وإمكانياتها وسننها ونواميسها الكونية، كما زوده بالحواس التي يستعين بها فجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه به الأشياء، ويميز به بين الخير والشر[1].

والعقل البشري في الإسلام، هو وسيلة لتطوير عمل النوع البشري بجهده وإمكانياته لتحقيق ما تصبوا إليه البشرية من تقدم في ظل خير وسلام ذلك العقل، الذي هو مركز التفكير في ملكوت السموات والأرض، وهو الذي يرهف السمع حين يقف الإنسان المسلم يتلقى بقلبه من السماء السبع آيات رب الأرض والسماء[2].

وبالتالي فإن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان فخلقه في أحسن تقويم، وكرمه كذلك بالعقل، وجعل هذين كلا متكاملا، وبهما يتأمل في الكون المنظور، ويفقه كتاب الله، عن طريق العقل والإدراك بالتفاعل مع الحواس، يبدع الإنسان في هذا الكون ويعمره، وفق

(1) حسن رمضان نحلة: مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، دار الهدى، عين مليلة، الجزائِر، ط1، 1410هـ1989، ص20.

(2) صابر عبد الرحمن طعيمة: الإسلام والثورة الاجتماعية، دار الثقافة العربية للطباعة، ط1970،1م، ص118-119.

قدراته وطاقاته، في حدود أمره ونهيه سبحانه تعالى مع احترام السنن الموجودة في هذا الكون، فالله كرم هذا المخلوق ليحقق العمارة على مسرح الاستخلاف التي هي الأرض.

3- تمييزه بالعلم والمعرفة:

من أجل تمكين الإنسان من الخلافة والارتباط الاجتماعي،علمه الله اللغات وأسماء المسميات، ليسهل عليه وعلى ذريته التخاطب والتفاهم والكلام، فقال تعالى مباشرة بعد قرار الخلق وجعل آدم في الأرض: **" وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "** (1).

فالله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بتعليمه ما لم يعلمه أحدا من ملائكته، أسماء على مسمياتها ما كان منها وما سيكون، وهذا هو السر الإلهي الذي أودعه الله لهذا الكائن البشري وهو يسلمه مقاليد الخلافة، سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض(2).

فلو لم يهب الله الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، لكانت هناك صعوبة كبرى في التعامل مع الآخرين، وما كانت الحياة لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على العلم والمعرفة.

فالله تعالى حين جعل الإنسان خليفة في الأرض وهبه مستلزمات ذلك ومن بينها العلم والمعرفة، والتي اختص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات الأخرى.

4- تسخير ما في الكون للإنسان:

---

(1) البقرة، الآية 31.
(2) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج1، ج1، ص57.

لكي يكون الإنسان مهيأ لحمل الاستخلاف يجب أن يحمل خصائص فريدة غير موجودة في غيره وهو ما نجده في قوله تعالى: **" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"** (1).

فالله سبحانه وتعالى سخر كل ما في الكون للإنسان ليستفيد منه، وليكون وسيلة لعيشه وأداة لتقدم الحياة البشرية، لقوله تعالى: **" هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً"**(2)، أي خصص جميع ما في الأرض من منافع بالإنسان دون غيره، فجعل الكون كله في خدمته كرامة من الله له ونعمة منه عليه، وقد ربط تسخير ما في الكون بما ختمت به آيات كثيرة بقوله تعالى: "أفلا تعقلون"، "إن كنتم تعقلون" مما يدل على أن الاستفادة من الكون وتسخيره لا يتوقف إلا على إعمال العقل والفكر واستخدام وسائل البحث والعلم من أجل تسيير أجزاء الكون واستغلالها لصالحه وصالح البشرية(3).

فالله سخر للبشر وهم يعيشون على وجه الأرض، كل ما في السموات وما في الأرض وكل ما في البر والبحر لقوله تعالى: **" وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"** (4).

فرفعة الإنسان وعلو شأنه على الكون، اقتضت حقيقة أخرى طالما أكد عليها القرآن الكريم، وهي حقيقة تسخير الكون للإنسان، فقد هيأه الله ابتداء ليكون صالحا لاستقباله، وقدر مجوداتها كلها لتكون في خدمته فحدد الأبعاد والقوانين بما يتلاءم ومهمة الخلافة(5).

---

(1) الإسراء، الآية 70.
(2) البقرة، الآية 28.
(3) أحمد عبده عوض عبده: الإشارات العلمية في القرآن الكريم، ص231.
(4) الجاثية، الآية 13.
(5) عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص131.

وبالإضافة إلى تسخير الكون ماديا والمتمثل في الشمس والقمر والأرض فإنه أيضا مسخر له تسخيرا معرفيا، لأنه ينبني على قوانين ثابتة لا تتغير مما يتيح للعقل الإنساني أن يرصد كل ظواهر الكون، فيعرف حقائق تلك الموجودات الكونية، وهو ما يفسر التوجيه القرآني الدائم للنظر في الآيات الكونية والتدبر فيها[1].

وعليه فكل ما في الكون مسخر للإنسان بغية الانتفاع، لأنه شرفه بالاستخلاف، فعليه أن يستغل ما وهبه الله في تحقيق المعنى الحقيقي له عن طريق معرفة سنن الله الكونية، ومدى توافقها مع فطرة الإنسان، ليصل إلى الغاية المرجوة منه وهي تحقيق العبودية لله عز وجل.

فالله سبحانه وتعالى حينما خلق هذا الكون العظيم الشاسع بما فيه من موجودات اقتضت حكمته أن يختار نوعا من هذه الموجودات، وهو الإنسان فيجعله سيد هذا الكون، ويجعل سائر مظاهره مسخرة له قائمة بخدمته، من أجل تمكينه من أداء المهمة التي أوكلت له والمتمثلة في الخلافة.

فمن حكمة الله تعالى، أنه زود الإنسان بكل لوازم آداء المهمة على الأكمل، فأمده بالقدرات العقلية والروحية، والبدنية الكافية للنجاح في وظائف الخلافة، وعمارة الأرض ولولا هذه القدرات الممنوحة، لما استطاع الإنسان أن يتحمل هذه المهمة الضخمة، وأن يقوم بدوره الخلافي على أحسن ما يرام.

ب- الاستخلاف الخاص:

النيابة في الحكم، وهو نوعان: استخلاف الأفراد واستخلاف الأمم والاستخلاف في الحكم بنوعيه منة، أخرى يمن الله بها على من يشاء من عباده أمما وأفرادا بعد أن منّ عليهم جميعا بنعمة

(1) المرجع السابق، ص132.

الاستخلاف في الأرض[1] لقوله تعالى: " **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** " [2] وهذا ما سنوضحه فيما يلي:

1- استخلاف الأفراد:

لقد جعل الله الأرض مسرح الاستخلاف لبني البشر جماعات وأفراد، وهؤلاء البشر كان لا بد من تنظيم يحكمهم، وقائد يقودهم بغية تجنب الفوضى لذا نجد أن الأمة قد أجمعت على تنصيب إمام أو خليفة، يقوم بتنفيذ أحكامها وإقامة حدودها، وفق شرع الله.

ونستخلص من ذلك أنه لكل جماعة أو دولة قائد يحكمها، ينوب عنها في تطبيق شريعة الله، وتعمير الكون وفقها، هذا الذي نسميه الخليفة مصداقا لقوله تعالى: " **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**" [3]، فالخليفة هو الذي ينوب عن الأمة في الحكم والسلطان، وإقامة شريعة الله، أي القيام بشؤون الدولة في الحدود التي رسمها الإسلام[4].

فوظيفة الإنسان في الدنيا تنفيذ أوامر الله تعالى، بحيث يكون في كل عمل مادي أو معنوي متجها إلى الله تعالى يبتغي مرضاته، أي مسؤول عن تنفيذ كل قانون سنه الله وألزمه به.

فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أجمع الصحابة على تعيين خليفة أو إمام يسلمون إليه النظر في أمورهم، وينوب عن الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة شريعة الله، هذا هو استخلاف الأفراد، استخلاف في الرئاسة وقد يسمى المستخلف خليفة أو ملكا أو أميرا.

1.1- استخلاف الأنبياء بعضهم البعض:

(1) عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية، الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة، الجزائر، د.ط، د.ت، ص18.
(2) القصص، الآية 5.
(3) البقرة، الآية 29.
(4) سعيد حوى: الإسلام، شركة الشهاب، الجزائر، ط2، 1408هـ1988م، ص373.

هو نوع من أنواع استخلاف الأفراد، فهو يمثل علاقة الدعوات ببعضها البعض، ذلك أن جميع دعوات الأنبياء والمرسلين تجتمع في جملة من المبادئ العامة والأساسيات الهامة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **"إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه وينذرهم شر ما يعلمه لهم"**[1]، هذه رسالة كل الأنبياء تدل على كل خير وتحذر من كل شر.

فالاستخلاف بين الأنبياء يكمن في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والتي لم يختلف مضمونها منذ آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: **"وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"**[2] وكذلك قوله تعالى: **" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ"** [3].

فبالرغم من حمل كل نبي من الأنبياء مسؤولية خاصة به، وفقا للمتطلبات الزمنية التي يعيش فيها،إلا أن حقيقة دعوتهم وجوهرها واحدة في كل المواقع لأنها الركيزة الأساسية التي تعتمد عليها سائر الدعوات السماوية، فما من نبي ولا رسول إلاّ دعا قومه إلى توحيد الله تعالى، وتنزيهه عن كل ما يليق به من الصفات، مصدقا لدعوة من قبله ومبشرا ببعثة من يأتي بعده[4].

فتلك هي دعوة الأنبياء جميعا إلى مختلف الأمم والأقوام، جاءت لتؤكد على حقيقة واحدة وهي توحيد الله تعالى، التي حملوها إلى الإنسانية جميعا في جميع أجيالهم ومختلف بيئاتهم وبلدانهم وأزمانهم.

---

(1) رواه مسلم في كتاب الأمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ، ج12، ص233.
(2) النحل، الآية 32.
(3) الأنبياء، الآية 25.
(4) ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، دار الفكر، الجزائر، ط11، 1991، ص34-35.

فالاستخلاف بين الأنبياء يكمن في الدعوات وهو مكمل لبعضه البعض، إلى أن جاءت الرسالة المحمدية الشاملة واستخلفت كل الدعوات الأخرى.

2- استخلاف الأمم :

أوجد الله البشر في الأرض، واستخلفهم فيها ليعمروها، وفق النواميس العادلة لخالقهم وخالق كل شيء، فكان الاجتماع البشري ضرورة حتمية لتحقيق تلك المهمة، مما أوجب عليهم تعين فرد منهم يقودهم ويحكمهم، ولا شك أن هذا الفرد إن عمر الكون وفق القانون الإلهي الذي أنزل، سوف يستخلفها في الأرض للأمم التي حادت عن أحكام الله ومنهجه لقوله تعالى: **"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ "** [1].

ومعنى ذلك أن استخلاف الأمم لا يمكن أن يجيء اعتباطا وإنما يأتي نتيجة العمل الشاق والجهد المستمر، المتمثل في العمل الصالح والإيمان وتلك سنة الله في خلقه.

فالاستخلاف الذي وعد الله به عباده مشروط بالإيمان والعمل الصالح، قال الإمام الرازي: "فقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات أي الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ليستخلفنهم في الأرض"[2]، فالإيمان له معان وآثار بينها الشرع في القرآن الكريم والسنة النبوية ومن ذلك أن يتقين المسلم بأن الإسلام الذي هداه الله إليه حق خالص، وما عداه باطل لقوله تعالى: **" قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى"**[3] وأنه محكوم بأحكام الإسلام في جميع شؤونه وتصرفاته.

(1) النور، الآية 55.
(2) الإمام فخر الدين الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ج24، ص22.
(3) سورة البقرة، الآية 120.

والعمل الصالح: هو كل ما يصلح شأن المسلمين في الدنيا من الإعداد والاستعداد والتفوق، وما يصلح شأنهم في الآخرة من الطاعة واجتناب المعاصي.

فمسألة الاستخلاف في القرآن الكريم مرتبطة بالعمل والإبداع ومجانبة الإفساد في الأرض، وتلقي القيم والتعاليم والشرائع عن الله والالتزام الجاد بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم، فإذا نقص عنصر من هذه العناصر أدى إلى استبدال الجماعة بجماعة أخرى تقدر عل تحقيق معنى الخلافة على أحسن وجه[1].

وهذا ما أشار إليه ابن كثير وهو يتكلم عن آية الاستخلاف فقال رحمه الله تعالى: "فالصحابة لما كانوا أقوم الناس بعد النبي- صلى الله عليه وسلم- بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله تعالى كان نصرهم بحسبهم، فأظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب وأيدهم الله تأييدا عظيما، وحكموا في سائر البلاد ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأمور نقص ظهورهم بحسبهم"[2] أي بحسب ما عندهم من الإيمان والعمل الصالح، وقيامهم بأوامر الله تعالى.

فالإيمان والعمل الصالح شرط لاستخلاف الأمم وبقائها على وجه الأرض فإن ضيعت هذا أهلكها الله، واستخلف غيرها، وقد ضرب لنا القرآن الكريم عدة أمثلة عن إهلاك الأمم لما طغوا واستخلفهم بغيرها، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

- استخلاف قوم هود لقوم نوح عليه السلام:

قال تعالى: **" وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "** [3].

ذكر المؤرخون في فصص الأنبياء أن عادا كانوا متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل الله إليهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله، وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه، وخالفوه، فأخذهم الله

(1) عماد الدين خليل: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، مطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، ط2، 1405هـ1958م، ص29.
(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص2061.
(3) سورة الأعراف، الآية 68.

أخذ عزيز مقتدر، فلما أمرهم بعباده الله، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة **"قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ"** [1] أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة الأصنام، التي يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك **"قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ"** [2]أي ليس الأمر كما تزعمون وقد جئتكم ناصحا مبلغا لرسالة ربي، وذكرهم بنعمة الله إذ جعلهم خلفاء قوم نوح لما خالفوه وكذبوه وعتو في ظلالهم فأهلكوا، واستخلف غيرهم"[3].

فهناك مجموعة من قصص القرآن قصها علينا حول مسألة الاستخلاف للإتعاظ بها، فكل من يخرج عن طاعة الله وطواعيته فمصيره الهلاك، ثم يستخلف قوما غيرهم استقاموا على منهج الله تعالى، جعل لهم السلطان في الأرض، فقوانين الاستخلاف هي أصل وجود البشر بكل حضاراتهم على اختلاف مشاربها وتفنن تقنياتها إلا أن القرآن الكريم قد حكم ذلك الوجود والاستخلاف بقوانين عامة نجدها شاخصة في القصص والمثل القرآني، وهذا ما سوف نتطرق إليه في المطلب الموالي.

المطلب الثالث: غايات الاستخلاف

إن فكرة الخلق هي لعبادة الله وعمارة الأرض، والتعاون بين الأمم والحضارات المختلفة بما يرضي الله تعالى، ويقيم شرعه الذي يعدل بين عباده، فيكون استخلاف البشر في الأرض يحمل السمات أو الغايات الآتية:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 66.
(2) سورة الأعراف، الآية: 66.-67.
(3) محمد بن أحمد كنعان: قصص الأنبياء وأخبار الماضين، خلاصة تاريخ بن كثير، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، د.ط، 1423هـ-2002م، ص135.

1- عمارة الأرض بما يرضي الله ويقيم مصالح العباد

وهو المبدأ الذي يبين وجود الإنسان على مسرح الأرض لقوله تعالى: **"هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"**[1] أي جعلكم فيها عمارا تعمرونها وتستغلونها[2].

فالله خلق الإنسان ليكون هو السيد في الأرض بإذن الله، وأناطه عمارة الأرض وإقامة مجتمع إنساني عليها، تشرق فيه العدالة، وتشيع في أنحائه الرحمة، ومن أجل ذلك سخر الكون لخدمة الإنسان ولتحقيق مصالحه وأسباب رفاهيته التي تهدف إلى عمارة الأرض وفق سنن الله ونظامه الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل[3].

فتسخير الكون للإنسان هو إحدى أسباب عمارة الأرض بالخير والاستفادة من كل ما عليها وبجوفها من خيرات لإقامة مصالح العباد، والتعاون بين الأمم في ذلك من زراعة وصناعة وتقدم تقني مما أوجبه الإسلام عموما والآيات القرآنية لقوله تعالى: **" أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "**[4] إذن فالله أنشأ الإنسان من مادة الأرض، واستخلفه فيها، وهيأ له ما في الكون كله للانتفاع به، وعمارة الأرض في حدود ضوابط الشريعة الإسلامية، ووعده بأن يريه آياته في الآفاق والأنفس، ومدى توافقها مع السنن البشرية، لتكن هي سببا في هذه العمارة عن طريق العقل الذي فضله على سائر الكائنات الأخرى، كما سخر له ما في البحر والبر وكل ذلك من أجل عمارة الأرض بما يرضي الله ويقيم مصالح العباد.

---

(1) سورة هود، الآية 60.
(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1473.
(3) محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة لإنسانية في القرآن، كتاب الأصالة، ملتقى القرآن الكريم، العدد 15، الجزائر، 1401هـ1981م، الجزء 4، ص112.
(4) سورة الروم، الآية 8.

2- الابتلاء والامتحان

وهو فلسفة الوجود، وسبب خلق البشر، فالله تعالى إنما خلق البشر ليبتليهم أيشكرون ويؤمنون أم يكفرون ويشركون لقوله تعالى: **"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا "** [1].

فخلافة الإنسان عن الله في الأرض، وتكليفه بمهمة تحمل مشاق الأمانة وبلورتها وإخراجها إلى حيز الوجود، هو ابتلاء من الله تعالى، واختبار لعباده، فكل فرد مكلف بهذا الابتلاء المتمثل في الإيمان، إلا أن الله تعالى لم يجعل تكليف الإنسان بهذه المهمة قسريا، وإنما جعل له حرية الاختيار في ذلك، فمن شاء أداه ومن شاء فرط فيه، فكل فرد مسؤول عن اختياره[2] لقوله تعالى: **" فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ "** [3].

فالابتلاء واسع المعاني والدلالات، إذ يشمل كل أنواع التنافس سواء كان لمرضاة الله أم لأغراض دنيوية، لأنها جزء من مسيرة الخلق، وهو بشتى صوره أصلا لهذا الوجود. فلا يوجد كائن حي إلا وقد ابتلي برزق أو نفس أو صحة أو أي أمر آخر من صنوف الابتلاء، ومستمر مع الحياة حتى يرث الله الأرض ومن عليها لأنه يعد بمثابة صفقة تجارية بين العبد وربه للفوز برضا الله تعالى والآخرة.

وهناك آيات كثيرة تبين أن فكرة خلق الكون مرتبطة بتكريم الإنسان لحمله الأمانة التي لم تتحملها كل المخلوقات الأخرى قال تعالى: **"وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ**

---

(1) سورة الإنسان، الآية 2، 3.

(2) مسعود فلوسي: المهمة الوجودية للإنسان ووظيفة الأنبياء في الهداية والإصلاح، مجلة الحضارة الإسلامية، وهران، ص221.

(3) سورة الكهف، الآية 29.

بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" [1] فالآية الكريمة ربطت خلق السماوات والأرض من ابتلاء الإنسان وحمله الأمانة لتجزى بعد ذلك كل نفس بما كسبت[2].

وعليه فخلق أصل الكون ووجوده هو ذلك الإنسان الذي يبتلى ويمتحن أيطبق أوامر ربه أم لا؟ تلك الأوامر التي تقتضيها حقيقة الخلافة والعمارة التي تشكل أصل الوجود.

فالله سبحانه وتعالى قرر للإنسان في مهمة خلافته أن بقائها منوط بأعمال حيث يبتليه ليعلم قدرته على تحمل مسؤولية الاستخلاف، ومشاق الأمانة التي كلف فيها.

3- الاعتبار :

إن القرآن الكريم نزل إلى البشر ليخاطبهم مباشرة، ويتحدث إليهم عن قرب ويدعوهم إلى إصلاح أنفسهم وإصلاح مجتمعهم، ويطالبهم بالاتعاظ مما حدث للأمم السابقة، لهذا نجده دائما يدعونا إلى التدبر والاتعاظ من قصص الأمم السالفة، لكي نعرف كيف تبنى الحضارة الحقيقية التي تعتمد على جمال داخلي للإنسان ليتحقق العدل والخير وكذلك جمال خارجي لتتحقق الروعة والتنسيق الذي يليق ببني البشر، لقوله تعالى: **" قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"**[3].

ولهذا نجد القرآن الكريم يطلب من الإنسان أن ينظر ويتفحص في مصير الأمم السابقة والاعتبار منها للوصول إلى أسباب البناء والانهيار واكتشاف العوامل التي كانت مصدرا لسقوط الأمم وأهمها الظلم والفساد[4].

فالقرآن الكريم حينما يقص علينا أنباء الأمم السالفة، فإنه يريد أن يقدم لنا صورة عامة على أخطائهم التي وقعوا فيها، حتى

---

(1) سورة الجاثية، الآية 21.
(2) خالد فائق العبيدي: القوانين القرآنية للحضارات، ص91.
(3) سورة الأنعام، الآية 11.
(4) أنور الجندي: الفكر الإسلامي وسموم التغريب والتبعية، دار الفضيلة، مصر، د.ط، د.ت، ص89.

يتفادها الإنسان في عملية الاستخلاف، والاعتبار بأن هلاك الأمم كان نتيجة خروجها عن منهج الله تعالى وإسرافها في الترف والفساد[1].

وعليه فإن الله تعالى قص علينا أخبار الأمم السابقة، لنتغط ونعتبر منها، ونكتشف سنن الله في الأمم والعمران البشري، فما من أمة خرجت على سنن الله إلا كانت نهايتها الزوال، والأمر كله يرجع إلى الله تعالى، وعلى الأمم المستخلفة أن تعتبر بها لكي تحافظ على خلافتها، لأنه إنما وجدوا على إقامة العدل بين الناس.

وخلاصة لهذا الفصل يمكن القول أن غاية الوجود الإنساني هي الاستمتاع بما في الأرض، وعبادة الله بمعناها الواسع، فكل إنسان مخلوق لعبادة الله، وعمارة الأرض التي تحقق خلافة الإنسان في الأرض. فالإنسان هو صانع الحضارة، لأن المفهوم الإسلامي للحضارة هو مفهوم العبادة وتحقيق غاية الوجود الإنساني التي حددها قوله تعالى: **" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"** [2]. فتحقيق تلك الغاية هو الذي تنشأ عنه الحضارة في الواقع البشري، وهو المعيار الذي تقوم به صعودا أو هبوطا استقامة أو انحرافا[3] هذا ما سنحاول تبيانه في الفصل الثاني من خلال دراسة بعض الحضارات الواردة في القرآن الكريم.

(1) ينظر: محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1407هـ1986م، ص72.

(2) سورة الذاريات، الآية 56.

(3) محمد قطب: مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، القاهرة، ط9، 1418هـ1997م، ص338.

تمهيد :

لقد ظهرت في التاريخ أمم كبرى وجماعات مختلفة، كانت لها حضارات رائعة بلغت درجة رفيعة من الامتياز والتطور، ثم أفسد أهلها بعد ذلك، فألحقوا بها العذاب، وقضوا عليها بالدمار والزوال، بعدما مكن لها الله العيش في الأرض مدة طويلة، ساد أصحابها زمنا على مسرح الحياة، واندثروا بعد ذلك مخلفين وراءهم معالم شاخصة تجدد الذكرى، وتبعث على العظة والتأسي لقولـه تعالى: **"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "**[1].

وقد ذكر القرآن الكريم قصص بعض الحضارات، فيما أشار إلى البعض الآخر، طالبا منا السير في الأرض والنظر إلى تلك الآثار لاستخلاص العبر والعظات والتعرف على أحداث التاريخ.

وقبل التطرق إلى الحضارات التي وصفها القرآن الكريم، لا بد أولا من مدخل للتعريف بالحضارة وعوامل ازدهارها وانهيارها، ثم بعد ذلك عرض بعض النماذج من الحضارات القرآنية القديمة التي وصفها القرآن الكريم والتي هي محور الفصل الثاني.

- تعريف الحضارة:

إن كلمة الحضارة من الكلمات الهامة التي حظيت بالبحوث الواسعة المستفيضة عبر التاريخ وأرهقت سمع الإنسان على مر العصور، واختلف الناس في تعريفها اختلاف بينا فمنهم من ينظر إليها نظرة شاملة، فيعرفها تعريفا عاما، ومنهم من ينظر إليها نظرة أدق ويعرفها تعريفا محدودا خاصا، هذا ما سنحاول تبيانه.

التعريف اللغوي:

(1) سورة الروم، الآية 8.

الحضارة في أصل اللغة: الإقامة في الحضر: يقال فلان من أهل الحضارة وفلان من أهل البادية، وفلان حضري، وفلان بدوي، الحضر خلاف البدو، وسكون الحضر الحضارة قال القطامي[1]:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا؟ !

فالحضارة هي السكون بالحضر أو الإقامة بالحضر، والحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[2].

فالحضارة في مدلولها اللغوي تعني الإقامة في الحضر، أي في المدن والقرى، وسميت الإقامة في المدن حضارة، لأن طبيعة حياتها الاستقرار بخلاف البادية التي طبيعتها التنقل والترحال.

أما **اصطلاحا**: فلها عدة تعاريف نذكر منها ما يلي:

1- تعريف ابن خلدون: عرف ابن خلدون الحضارة بأنها التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنّق من أصنافه وسائر فنونه[3] وعرفها في موضع آخر: بأنها ذلك النمط من الحياة المستقرة، المناقض للبداوة المنشئ للمدن والأمصار والذي يقتضي فنونا من العيش والعلم والصناعة وإدارة شؤون الحياة والحكم، وتوطيد حياة الراحة وأسباب الرفاهية[4].

2- أما ول ديورانت (Will Durant) عرفها: بأنها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي[5].

فكلمة الحضارة تعني في المفهوم المعاصر مدى ما حققه الإنسان من تقدم في جميع الميادين سواء في ميدان الزراعة أو

---

(1) القطامي:هو عمير بن شيم النصراني التغلبي، له لقبان أحدهما القطامي :منقول من الصقر،والثاني صريع الغواني ،وهو ابن أخت الأخطل ،كان معاصرا له ،وقد عده الجمحي في الطبقة الثانية من شعراء الإسلام . ينظر: عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تح:عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط4، (1418هـ-1997م)، ج2، ص371.

(2) أبو الفضل ابن منظور: لسان العرب، مج4، ص197، مادة حضر.

(3) ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1413هـ1993م، ص293.

(4) المصدر نفسه، ص136.

(5) ول ديورانت: قصة الحضارة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1423هـ2002م، ج1، ص19.

الصناعة أو الفنون. وعليه فإن الحضارة تعنى بنتاج النشاط الإنساني في أي مجال من مجالات الحياة.

وهناك لفظتان ترتبط بمفهوم الحضارة ارتباطا وثيقا، مما يصعب التفريق بينهما وخصوصا إذا أرجعناهما إلى اللغة الأجنبية لأنهما تستعملان للدلالة على معنى الحضارة، وهما الثقافة والمدنية، فما هي العلاقة التي تجمع بينهما؟

لقد اختلف الباحثون في تحديد معنى الحضارة (Civilization)، والمدنية (Citizen)، والثقافة (Culture) فهم قد يجمعون بينهما وقد يفرقون، فمنهم من يعطيها معنى شموليا كليا يشمل مختلف نشاطات الإنسان، وبعضهم يحصر المضمون الحضاري بمعنى الثقافة، ويستعمل المدنية بمعنى الحضارة التي تمثل الجانب المادي فقط، أي يرون أن الحضارة مرادفة للمدنية بخلاف الثقافة فإنها تشمل الجانب الفكري والنشاط الإنساني.

وعليه فالحضارة هي كل ما يشمل محصلة النشاط الإنساني، ومظاهرها تتجسد في النظام السياسي والاجتماعي والديني والفكري والعلمي وغير ذلك[1].

فكلمة مدنية من الكلمات المستحدثة، وتدل على الجانب المادي من الحضارة، كتشييد المدارس والمعالم أو تعبير عن حالة الرقي والتقدم في الأفراد والمجتمعات[2].

أما الثقافة فهي كلمة لها صلة وثيقة بالحضارة والمدنية وأصلها مأخوذ من "تثقيف الرمح" أي تقويمه وتسويته، ثم انتقلت الكلمة إلى "تثقيف العقل" أي تهذيبه بالمعارف المختلفة[3]، وهي عند علماء الاجتماع تمثل الجانب المعنوي لمدلول الحضارة والمتمثل في الإنماء الفكري والعقلي، أي هي ثمرة النشاط الإنساني في مختلف مجالات المعرفة[4].

---

(1) خالد فائق السعودي: القوانين القرآنية للحضارات، ص15.

(2) قسنطين زريق: في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1964م، ص35.

(3) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص76.

(4) ينظر، توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم -عالم ما قبل القرآن- دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط،

ونستخلص مما سبق أن المدنية والثقافة معا هما جانبا الحضارة بمضمونها الفني عند علماء الاجتماع، لأن الحضارة هي الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة أو هي مجموع الحياة في صورتيها المادية والمعنوية، و بمعنى آخر هي ثمرة الجهد الذي يبذله الإنسان وتطبيقها إلى واقع ملموس في الحياة وهي المدنية، وبالتالي فإن المدنية تعتبر التجسيد الحي للثقافة. ولقيام الحضارات وتقدمها عوامل متعددة نذكر منها ما يلي:

- عوامل قيام الحضارة:

لقيام أي حضارة لا بد من توفر جملة من العوامل الأساسية، وهي ما يطلق عليها بمقومات الحضارة، ومن هذه المقومات ما هو ضروري لتكوينها، ومنها ما هو شرط لازدهارها واستمرارها وتتجسد هذه العوامل فيما يلي:

أ- عامل البيئة الطبيعية:

تؤثر البيئة وعواملها في صنع الحضارة وتطورها تأثيرا بالغا، لأنها تشمل الواقع الجغرافي الذي له أثر قوي في صنع الحضارة، فهو الموقع الذي يستقر فيه الإنسان ويقطن به، فالإقليم الذي يقع على ساحل بحري، أو طريق تجاري، وتكون تربته تجود بالثروات والطعام، ويكون بعيدا عن مناطق الاضطرابات الطبيعية، كالمناطق الزلزالية والبركانية، يكون هو مسرح التحضر والتطور، لأنه على أساس الأرض والمناخ تتحدد البيئة التي تكون مواطن الحضارة، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد المجيد النجار حيث يقول في كتابه: "إن حياة متحضرة للإنسان لا يمكن أن تنشأ أو تنمو إلا على مسرح بيئي مستجيب للاستعطاء في أرضه ومناخه"[1].

وهذا ما أشار إليه أيضا ابن خلدون في مقدمته فيقول "لهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل

د.ت، ج1، ص41.

(1) عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر الإسلامي، ص31.

والحيوانات وجميع ما يتكون في الأقاليم المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوات فإنها توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بها أكمل النوع في أخلاقهم وخلقهم، وأهل هذه الأقاليم أكمل –لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في ملابسهم ومساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجزة بالحجارة- المنمقة بالصناعة ويتنازعون في استجادة الآلات ويذهبون في ذلك إلى الغاية"[1]. فابن خلدون يرى أن البيئة الجغرافية تؤثر في الحضارة تأثيرا قويا، وتعكس أوضاعها على الناس، فهناك العديد من الجماعات عاشت في بيئاتها دهرا طويلا متوفرة لها أهم عوامل التحضر الأخرى، غير أن طبيعة البيئة والعوامل المناخية المحيطة بها حكمت عليها بالبداوة ومثال ذلك مجموعة الإسكيمو في القطب الشمالي المتجمد[2].

ومما سبق يتضح لنا أن للبيئة الجغرافية أثر كبير في تشكل الحضارة وازدهارها فهي بالنسبة للحضارة كالوعاء بالنسبة للمادة، لأنها الموطن الذي تنشأ فيه وتستقر عليه، فتوفر البيئة الجغرافية لمجموعة بشرية يعني بداية التحضر.

ب- المقومات الاقتصادية :

تعتبر المقومات الإقتصادية عاملا من عوامل صنع الحضارة والتقدم ويتضح ذلك من خلال تأثيرها على مختلف جوانب الحياة العمرانية، ففي ظل النمو الاقتصادي وازدهاره تندفع الحضارة قدما إلى الأمام، ولا يكون ذلك إلا في المدن لأنها تحمل في ثناياها الرخاء الاقتصادي، وتخلق الثقافة التي تحدد النمط المعيشي الذي تصاغ عليه الحياة الحضارية، فكثيرا ما يكون لشعب مؤسسات

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص65.
(2) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط4، 1983م، ص77.

اجتماعية منظمة، وتشريع خلقي رفيع وقد تزدهر فيه صغريات الفنون ومع ذلك فإنه مازال في ظل مرحلة الصيد البدائية لأنه لم يبلغ الحد الأدنى من الثقافة الذي لا بد منه من أجل ازدهار الحضارة وتطورها كما هو الحال مع الهنود الأمريكيين[1].

فحدوث الأزمات الاقتصادية وقلة الإنتاج والاعتماد على الوسائل البدائية لا تمكن من إحداث الثورة الحضارية، وإنما تؤدي إلى التدهور الحضاري.

وهذا ما يلاحظ على الدول الفقيرة فهي تسعى دائما إلى سد حاجياتها دون أن تكون لها فرصة للتفنن والابتكار والتقدم نحو الأمام، إلا أن هذه العوامل لا تنشئ وحدها حضارة بل لا بد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة، فلا بد من وجود نظام سياسي معين -مهما بلغت درجته من القوة أو الضعف- لأنه يعتبر أحد العوامل التي يتوقف عليها قيام الحضارة، فالنظام السياسي مهما يكن شكله يلزم لأي مجتمع يريد أن ينتج حضارة معينة، لأن له سلطته وتأثيره في تنسيق فاعليات الأفراد وحمايتهم، وتدبير شؤونهم العامة وعلاقاتهم بالمجتمعات والدول الأخرى[2].

ج- العوامل النفسية أو المعنوية:

ونعني بها الأخلاق ووحدة اللغة والأمن فلا بد لأي فرد من أفراد المجتمع أن يتحلى بها، لأن آثارها تنعكس عليهم في صور من التفاهم والأخوة، والتعاون والإتقان في العمل، فأي مجتمع تحققت فيه تلك المعاني فهو يسير في طريق التحضر، بخلاف المجتمعات التي يسودها الظلم والعداوة والخوف، وهذا ما يلاحظ على المجتمع العربي عند البعثة المحمدي، فتميزه بالأمن والتآخي والتعاون ساعده على إقامة حضارة إسلامية متطورة، خلافا للمجتمع الروماني والفارسي الذي بلغ مبلغا كبيرا في وسائل

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، ج1، ص19.
(2) قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، ص43.

الترف والراحة إلا أنه لم يرق إلى التحضر بسبب ما كان يعانيه أفراده من الظلم والاستبداد والخوف[1].

فالعامل المعنوي أو النفسي له أثر كبير في قيام الحضارة وتطورها، لأن الحضارة في تعريفها هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماعات على السواء، ولا يكون ذلك التقدم إلا إذا وجه أفرادها إرادتهم إلى الخير الروحي والمادي اللذين يمثلان جناحا الحضارة.

فإذا ما توفرت للحضارة عوامل النمو والازدهار، فلا بد لها من عنصر آخر يضمن لها الاستقرار والثبات، ألا وهو ارتباط أهلها بدين سماوي، لأن العامل الديني يعتبر العامل الأساسي لقيام الحضارة.

وهذا ما بينه ابن خلدون عندما فسر أثر العامل الديني في قيام الحضارة حيث قال: "إن القلوب إذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله –بالتوحيد- اتخذت وجهتها، فذهب التنافس وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة فعظمت الدولة"[2].

فرفض الدين والانحراف عن الفطرة التي فطرها الله على الناس لقوله تعالى: **" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"**[3] يوقع الناس حتما -شاءوا أم أبوا- في عبادة الفرد واتباع الهوى لقوله تعالى: **"وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ"** [4].

فالدين هو أساس الاستقرار والاستمرار للحضارة سواء كانت الحضارة في مستوياتها الدنيا أم في مستوياتها العليا، فإذا لم يرتبط الناس بدين سماوي وانحرفوا من التوحيد إلى الكفر، فإن حضارتهم

(1) عبد المجيد عمر النجار : فقه التحضر الإسلامي، ص24.
(2) ابن خلدون: المقدمة، ص125.
(3) الروم، الآية: 29.
(4) الحج، الآية: 29.

حتما ستزول مهما بلغت من الرقي والازدهار[1]، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في العديد من آياته، مبينا أن تداعي التحضر يكون بسبب الانحراف العقدي، وخير مثال على ذلك قصص الأقوام الماضية التي ذكرها القرآن الكريم، فقد بلغت درجة رفيعة من التطور ثم انتكست بسبب انحرافها عن الهدى وإسرافها في المعاصي وتجاهلها صوت الوحي فجعلها الله أثرا لاستنباط العبرة والعظة لقوله تعالى: **" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ"** [2]، أي الذين بدلوا نعمة الله كفرا، وهم الذين انحرفت فكرتهم عن الكون والحياة من التوحيد إلى الكفر، وعبادة الحجارة, فبدأت حالتهم تنتقل من النعيم إلى البوار، أي من الاستقرار والتحضر إلى الخوف وغلظة العيش ثم إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، وهذه الآية وإن كانت نزلت بخصوص قوم إلاّ أن معناها يحمل على العموم في أحوال المجتمعات التي ينحرف إيمانها إلى الكفر[3].

وخلاصة ما سبق يمكن القول أن قيام الحضارة مرهون بعوامل,بعضها يتعلق بالبيئة الجغرافية؛ التي تعتبر الموطن الثابت الذي يعيش عليه الإنسان ويقطن به، وبعضها يتمثل في الجانب الديني الذي يضمن لها الاستقرار والثبات، وبعضها الآخر يتعلق بالوضع النفسي للجماعة المتعايشة، فبقدر ما تتوفر شروط معينة في تلك العوامل بقدر ما يكون هناك تحضر وتطور، وعلى العكس من ذلك يكون اختلال تلك الشروط سببا في التوقف والانحدار. فمتى توفرت تلك العوامل كانت هناك حضارة راقية، ومتى اختل أو طغى عامل على آخر اندثرت تلك الحضارة، ولم تبق إلاّ آثارها لتدل عليها.

ولقد رصد القرآن الكريم نماذج من الحضارات القديمة مبرزا لنا عوامل تطورها، واندثارها بغرض النظر والتدبر في الأسباب

(1) عبد الكريم عبد اللطيف الصعيدي: حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 1416هـ1996م، ص36.
(2) إبراهيم، الآيتان: 30-31.
(3) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مج6، ج13، ص228.

التي أدت إلى تطورها، ومن ثم تمييز العوامل التي أدت إلى اضمحلالها وزوالها, هذا ما سنحاول التطرق إليه في المباحث الموالية.

المبحث الأول: حضارة عاد وثمود

إن المتدبر لمسيرة الحضارات في جميع الحقب التاريخية للبشر، يجد أنها تصل إلى قمة المجد والصعود، ثم تتدحرج وتنهار لأسباب عديدة، وقد ذكر القرآن الكريم في العديد من آياته بعض حالات هذه الحضارات، التي صعدت ووصلت لأعلى درجات الرقي والتحضر، كحضارة عاد وثمود والحضارة السليمانية والسبئية، فكلهم وصل بهم الصعود إلى درجات التحضر وسلم التقدم حتى بلغوا قمة مجدهم، لكنهم ما لبثوا إلى أن تراجعوا وسقطت حضاراتهم واندثروا لسبب من الأسباب، هذا ما سنحاول تبيانه والتعرض عليه في هذه المطالب.

المطلب الأول: حضارة عاد

ورد ذكر عاد في مواضع عديدة من القرآن الكريم، بفنون كثيرة وأساليب متميزة تفصيلا وإجمالا، لتعرض في صورة رائعة أثناء مطالعة القارئ لكل سورة من السور التي وردّ فيها حضارة عاد، ويتجلى إعجاز القرآن ويستبين قصور الطاقة البشرية على إتيان بمثله أو تقليده، وأجمل الآيات التي تتطرق لوصف حضارة عاد، سورة الشعراء وكذا الأعراف، وهود والأحقاف، الفجر والذريات ففي قوله تعالى: **" كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يوم عَظِيمٍ"**[1]. فهذه الآيات تعرض صورة فنية حية معبرة لحضارة راقية, استجمعت مؤهلات البناء والعمارة، فهي كما يصورها القرآن الكريم حضارة زراعية، تمدها السماء بأسباب

(1) الشعراء، الآية: 123-135.

النعمة وتحفها بكل رعاية، ويعيش أهلها في نعيم من خصب ورغد عيش، ومع ذلك كانوا يعبدون غير الله، فبعث الله إليهم "هودا" عليه السلام نبيا ورسولا داعيا قومه إلى عبادة الله ومحذرا من نقمته وعذابه في مخالفته، مذكرا بأن تقوى الله هي أساس استمرار الحضارة وبقائها، لكن القوم أصروا على عبادة أصنامهم واستكبروا "**وقالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ**"[1]، فكان مصيرهم أن أحل الله بهم نقمته في الدنيا وأرسل عليهم الريح العقيم، وسلطها عليهم سبع ليالي وثمانية أيام لقوله تعالى: "**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ** "[2] ومعنى ذلك ريح شديدة الهبوب ذات برد شديد، أهلكم الله بها حتى صارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر نتيجة عتوهم ونفورهم من آيات الله وهذا هو موطن العبرة والعظة والهدف من ذكر القصص[3].

وبذلك لقيت عاد عاقبتها، وهي عاقبة كل من يخرج عن منهج الله تعالى في كل زمان ومكان، وعلينا أن نقرأ ونتدبر آيات الله في شأن عاد من أجل أخذ العبرة، فقد زالت حضارتها وذهب أصحابها، ولم تبق إلاّ معالمها شاخصة تبعث على العظة والتأسي.

1- موقع منطقة عاد :

يذهب المؤرخون المسلمون إلى أن منطقة عاد، كانت تقيم في أرض الأحقاف، وهي جبال الرمل الواقعة في شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها عمان استنادا إلى الآية الكريمة "**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ**"[4] وعليه فإن الأحقاف كانت هي منازل عاد[5]، وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام

(1) الشعراء، الآية: 136.
(2) الحاقة، الآية: 5-7.
(3) توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت، ج1، ص157.
(4) الأحقاف، الآية :20.
(5) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، بيروت، 1964، ج1، ص28.

ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: **"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ "** [1]، أما تاريخها الزماني، فلا نجد له ذكرا، سوى أنهم كانوا بعد قوم نوح لقوله تعالى **" وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ"** [2] أي أنهم جاءوا بعد قوم نوح.

2- مقوماتها :

امتن الله تعالى على عاد بكثير من النعم الجليلة التي تستوجب الشكر والامتنان لكنهم على العكس فقد قابلوا تلك النعم بالكفران والجحود وعصيان الله تعالى, وتتمثل مقومات حضارة القوم فيما يلي:

أ- البسطة في الخلق: فقد زادهم الله تعالى في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء بعد قوم نوح لقوله تعالى: **"وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً"**[3]، وبوأهم بأرض تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع الذي يعيشون منه، والأموال والجنات والعيون.

ب- القوة والترف: كانت عاد قد بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أية أمة من أمم الأرض في زمانها لقوله تعالى: **"فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ"**[4] فمن هذه الآية وحدها يتضح لنا أن عاد كانت أشد الأمم قوة، وأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلا بمؤهلات طبيعية، فقد كان أهلها ذا زرع وضرع، وعمروا البلاد وأذلوا العباد، كما يشهد بذلك قول هود عليه السلام لهم: **" أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا**

(1) الفجر، الآية: 6-7.
(2) الأعراف، الآية: 68.
(3) الأعراف، الآية : 68.
(4) سورة فصلت، الآية: 14.

تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ"[1] فكلمة "آية" هي بناء شامخ عظيم محكم باهر يدل على عظمتهم وقوتهم فعظمة البناء تدل على عظمة القوم، ودليل قوتهم قوله تعالى "وقالوا من أشد منا قوة"، وهذا يدل على أنهم كانوا في غاية من القوة والبطش الشديد[2].

3- التمكين في الأرض:

لقد مكن الله لقوم عاد في الدنيا من الأولاد والأموال، وزادهم في الخلق بسطة وأعطاهم منها ما لم يعط مثله لأمة أخرى لقوله تعالى: **"وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ "** [3] وقوله أيضا **"وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً"** [4] وكذلك قوله تعالى **" إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ"**[5] فهذه الآيات تكشف لنا نواحي من تاريخ هذه الأمة العربية، وتبين لنا أن عناصر تلك الحضارة تجسدت في فن العمارة وهندسة المباني، وهذا دليل على أن أهلها كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية, وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة في الأمة[6]، فقوله "ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد" تشير إلى عظمة المدينة، ووصف لحضارة عمرانية لا مثيل لها، فالعماد لا تكون إلا في القصور والأبنية الباهرة والمدن المخططة على نظام محكم، فمن هذه الآيات يتبين لنا أن عادا قد بلغت من الحضارة ما لم تبلغه أية أمة أخرى، فهي حضارة عمارة وصناعة لقوله تعالى: "أتبنون بكل ريع ءاية وتعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون"، فكلمة مصانع توحي

(1) الشعراء، الآية: 128-134.
(2) عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس، مؤسسة المعارف، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، د.ط، 1991، ص 511.
(3) الشعراء، الآية: 132-134.
(4) الأحقاف، الآية: 25.
(5) الفجر، الآية : 7-8.
(6) محمد زعراط: معالم حضارية في القرآن الكريم، مجلة الحضارة الإسلامية، دار الغرب للنشر والتوزيع، العدد11، (شعبان 1425هـ أكتوبر 2005)، ص 18.

بأن القوم تفننوا في الصناعات، مما جعلهم يقيمون المصانع مهما يكن من بساطتها فهي دليل على معرفتهم بفن التعمير علما وعملا وبلوغهم فيه مبلغا عظيما[1].

أما قوله تعالى **أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** فهي تنبه إلى عنصر ثالث من عناصر الحضارة وهو عنصر الزراعة والمهارة فيها.

فحضارة عاد هي حضارة صناعية حضارة عمارة وبناء بلغت درجة رفيعة في الامتياز المادي إلا أنها لم تستقيم على منهج الحق وانحرفت عن الهدى، وأسرفت في المعاصي، وتجاهلت صوت نبيها، فكان مصيرها الدمار والهلاك.

عاقبة أمرهم :

لقد أرسل الله على قوم عاد ألوانا من العذاب، فكانت نهاية هؤلاء القوم عجيبة، وتمثل هذا العذاب فيما يلي :

أ- الرجس والغضب: لقوله تعالى: **"قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ"**[2]، أي عذاب وغضب، ووجب عليكم بجحودكم لآيات الله وعصيان رسوله رجس وغضب من الله، وعن أبي عباس قال معناه السخط والغضب[3] وكلمة "وقع" تدل على أنه قد قرب الانتقام المحتم، وهو محقق الوقوع.

ب- الريح المدمرة: لقوله تعالى: **" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ "**[4] ومعنى ذلك أن قوم عاد لما تمردوا وعتوا على ربهم، وعصوا رسوله وكذبوه وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، أرسل الله عليهم ريحا صرصرا و"الصرصر" هي "الباردة"، وهي الشديدة الهبوب، فقد كانت

(1) عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس، ص512.
(2) الأعراف، الآية: 70.
(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1179.
(4) فصلت، الآية: 15.

ريحا قوية شديدة بحسب قوتهم التي اغتروا بها، واستمر بهم هذا العذاب سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة[1].

فهكذا عصفت الريح بجبروت القوة، وخربت ديار الجبارين، وهكذا كانت نهاية قوم عاد وحضارتهم، ولم تبق منها إلاّ معالم شاخصة تجدد الذكرى، وتثير للتأمل والاعتبار وتدعو إلى التدبر والسير في الأرض للتعرف على أحداث التاريخ، وإثبات حضارة الشعوب العربية التي بزت فيها الأمم.

والجدير بالذكر، أن عادا لم تذكر في كتاب من الكتب السماوية الأخرى سوى القرآن الكريم، ولا نجد مصدرا لهذه الأخبار يصح التعويل عليه، سوى القرآن الكريم وحده فقد ذكر مساكنهم، وأحوالهم، وقوتهم، وما بذله هود عليه السلام في سبيل هدايتهم وردهم عن فاسد اعتقادهم، وهذا وجه من وجوه الإعجاز وهو الإعجاز التاريخي الذي يتمثل في قوة الإيحاء وصدق الدلالة، وأسرار التطور الإنساني عبر التاريخ[2]، فالقرآن الكريم ينفرد وحده بأخبار أمم قديمة طواها التاريخ.

المطلب الثاني : حضارة ثمود

ورد ذكر ثمود في القرآن الكريم أحد عشر مرة في سور متعددة وهي الأعراف، الحجر، هود، الشعراء، النحل، الذاريات، النجم، القمر، الحاقة، الشمس، وتكررت المعاني بعبارات مختلفة، ومواضع مختلفة مع جمال الألفاظ، حتى يتجلى للقارئ أن ذلك التكرار له مغزى يساق للعبر والاتعاظ بما حل بالأمم السائدة.

وتتضح ملامح الحضارة الثمودية متميزة بعناصرها المادية من خلال الوصف القرآني لها، فهي أمة بلغت النهاية في الحضارة المادية وفنونها، إلا حد بعيد يشبه حضارة عاد، كيف لا؟ وقد

(1) ابن كثير:تفسير القرآن العظيم، ج4، ص2544.
(2) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص 49.

ورثوا عن عاد بناء الحجارة فنحتوا في الجبال بيوتا وأتقنوا نحتها وصنعتها[1].

وتتجلى عناصر تلك الحضارة المادية الوثنية في بناء القصور، ونحت البيوت في الجبال، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: **"وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ"** [2]، فهذه عناصر حضارية تعتمد على فن النحت والعمارة.

التعريف بهم وموطنهم:

ثمود أمة مشهورة من العرب سميت باسم جدها ثمود بن عاد بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام وسمت هذه القبيلة ثمودا لقلة مائها، إذ الثمد،[3] هو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر -بكسر الحاء- وموقعها بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وكانوا بعد قوم عاد في الزمن (أي بين هود وإبراهيم)، يعبدون الأصنام كأولئك, فبعث الله فيهم رجلا منهم هو سيدنا صالح عليه السلام، فدعاهم إلى الإيمان بالله ونبذ ما كانوا يعبد آباؤهم فكذبوه ثم طالبوه بمعجزة تدل على صدق دعوته فأجابهم: **" هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "** [4]

فآمنت به طائفة منهم، إلا أن الغالبية العظمى منهم قد كفروا برسالته، وعتوا في طغيانهم عتوا كبيرا، فأقدموا على عقر الناقة لقوله تعالى **" فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي**

(1) ينظر: توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ص164.
(2) الأعراف، الآية: 73.
(3) ثمد :ثمود قيل هو عجمي ،وقيل هو عربي ،وترك صرفه لكونه اسم قبيلة، وهو فعول من الثمد:الماء القليل الذي لا مادة له ومنه قيل فلان مثمود إذا كثر عليه السؤال حتى فقد مادة ماله.ينظر :الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن ،ص78،مادة ثمد.
(4) الأعراف، الآية: 72.

دَارِهِمْ جَاثِمِينَ " [1] وهكذا هلك الكافرون بعد ثلاثة أيام ونجى الله صالحا والذين آمنوا معه[2].

مقوماتها:

لقد أنعم الله تعالى على ثمود بالنعم الوفيرة التي تتجلى من خلال النصوص القرآنية والمتمثلة فيما يلي :

العيشة الرافهة:

تمثلت معيشة القوم في الأمن والاستقرار، والزراعة المتنوعة والعيون المائية، والمساكن المريحة لقوله تعالى: **" أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ "** [3].

ومعنى ذلك أنهم كانوا أهل خصب ورفاعة حال، لما كان لهم من الجنات الوافرة الجنى والعيون المتفجرة التي يستقون منها هم وماشيتهم وزروعهم.

وما يمكن قوله: إن أمة ثمود بلغت درجة رفيعة في الحضارة المادية وفنونها، لأنها تملك وسائل التعمير التي على أساسها تقوم الحضارة أو المدنية، ومن فنونها: زرع الأرض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة، وإنشاء الحدائق، وتقسيم المياه على تلك الغروس، فقد كانوا قوما عالمين بحال الأرض وطبائعها. ومتمكنين من فن الزراعة، كل هذا وصفه القرآن الكريم في آياته وصفا بليغا لا نظير له.

كما ذكرهم القرآن الكريم في مواضع عديدة بإتقانهم لنحت الحجر، في قوله تعالى **"وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ**

(1) الأعراف، الآية: 76-77.

(2) ينظر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، 1417هـ-1997م، م1، ص139. (تاريخ ما قبل الهجرة النبوية الشريفة).

(3) الشعراء، الآية 146-149.

وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ" [1].

فالآية توحي إلى أن القوم كانوا أهل براعة ومهارة خارقة في النحت والعمارة، فقد نعتهم القرآن الكريم في نحتهم للحجارة بأنهم "فرهون" والفراهة: القوة، والفاره: هو الذي يعمل بنشاط وخفية ولا يأتيه ذلك إلا من خبرته بما يعمل، وعلمه بدقائقه واعتياده له، وقد كانوا متقنين لنحتها ونقشها فتجلت قوة الفن والمهارة في النحت، كما توحي كلمة "جنات" بأن القوم كانوا يعيشون في رفاهية وسعادة ويتضح ذلك المفهوم من قوله سبحانه و تعالى: "أتتركون في ماهنا ءامنين" أي جعلهم في أمن من المحذورات، وكلمة الأمن تحمل في معناها السعادة والهناء[2].

إلا أن هذه الحضارة المادية قد أعماها حب التمرد والطغيان، وأصمت آذانها عن قبول دعوة الله، وأبت إلا الإجرام والإفساد في الأرض، فكانت عاقبتهم عاقبة وخيمة.

عاقبة أمرهم:

كانت نهاية هؤلاء القوم نهاية أليمة، فلما عقروا الناقة[3]وعتو عن أمر ربهم، وهموا بقتل النبي صالح عليه السلام غيلة، وأصروا على الكذب، قال لهم نبيهم: لكل أمة أجل "... **فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ" [4].**

---

(1) الأعراف، الآية: 73.

(2) توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص165.

(3) عقر الناقة ا لتي كانت من معجزات سيدنا صالح عليه السلام ،بعد أن اتفقوا على أن تبق هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم ،فكانت ترو الماء يوما ولهم يوم فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر بأرض الحجر يقال لها بئر الناقة ،فيرتفع إليها الماء فما ترفع رأسها إلا وقد شربت جميع ما فيه ،وهم يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم .ولهذا قال تعالى :" **إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ** " أي اختبارا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون ؟والله أعلم بما يفعلون ،فلما طال عليهم الحال ،اجتمع ملأهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم .ينظر:محمد بن أحمد كنعان :قصص الأنبياء وأخبار الماضين :خلاصة تاريخ بن كثير،مؤسسة المعارف ،بيروت ،لبنان،د.ط، 1423هـ2002م،ص148

(4) هود، الآية: 65.

وكانت عقوبتهم بأن أهلكوا بالطاغية، وقد عبر عنها القرآن الكريم تارة بالصاعقة، وتارة بالرجفة، وتارة أخرى بالصيحة، وكان ذلك العقاب بسبب طغيانهم وفسادهم، فتركتهم حصيدا خامدين، وأصبحوا في دارهم جاثمين، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها، وقد وردت العديد من الآيات تبين هلاك قوم ثمود يقول تعالى: " **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**" [1] ويقول أيضا: " **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** " [2]، وقوله تعالى أيضا في موضع آخر: " **فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا**" [3].

فمن خلال هذه الآيات يبين لنا أن الله أهلكهم بألوان من الصواعق القوية، وهي ألوان من الظواهر الطبيعية التي تتمثل في تفريغ كهربائي يحدث برقا ثم يسمع له صوتا وقد عبرت الآيات بذلك، لأن الصاعقة قد تكون مصحوبة بصوت عظيم، وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال، أو تكون في مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر[4].

لقد كانت حضارة ثمود حضارة زراعة وعمارة إلا أنها بادت كما باد غيرها من الأمم السابقة بسبب تنكرها لصوت الوحي الإلهي وتشبثها وإصرارها على الوثنية، فقد كانت حضارة مادية، ولم تكن حضارة إيمان وطهارة مما جعلها تندثر وتنهار، كما اندثرت أخوات لها من قبل، وأصبحت قصصا تحكى وأحاديث تروى وعبرا تقال في مجال العظة والتأسي.

فالجانب الديني أو الروحي يلعب دورا كبيرا في ارتقاء الحضارة وصعودها فبقدر ارتباط البشر بالمنهج الرباني والأخذ بتوجهاته تزدهر حضاراتهم ويبنون أروع المدنيات، وتضعف حضاراتهم وتضمحل وتنحط بقدر ما يبتعدون عن المنهج الرباني،

(1) الأعراف، الآية: 77.
(2) النمل، الآية: 51-52.
(3) الشمس، الآية : 14-15.
(4) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص:22.

ولهذا فقد أورد لنا القرآن العديد من الحضارات القديمة بغرض العبرة والتأسي.

المبحث الثاني: حضارة داود وسليمان

ذكر القرآن الكريم العديد من الحضارات القديمة التي تألقت على جانب من الروعة والجمال، بسبب استقامتها على منهج الحق وإصغائها لصوت النبوات، ومن بين هذه الحضارات على سبيل المثال لا الحصر الحضارة الداودية والسليمانية فقد ازدهرتا في رحاب الإيمان وتألقتا في الآفاق فصورهما القرآن خير تصوير لقوله تعالى: **"وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**(1).

من خلال هذه الآية يتجلى لنا أن الله قد أنعم على نبيه بالنعم الوفيرة، من أجل بناء حضارة يمتزج فيها الجانب الروحي مع الجانب المادي، وبالتالي تكون أزهى الحضارات، هذا ما سنحاول تبيانه في هذا المبحث، من خلال إلقاء نظرة على حضارة داود وسليمان عليهما السلام.

المطلب الأول: حضارة داود عليه السلام

ذكر اسم داود في القرآن الكريم في ستة عشر موضعا، أما ذكر قصته فقد وردت في القرآن مرات كثيرة، تارة مختصرة، وتارة مطولة، وكلها يكمل بعضها، وقد طالت مدته في الملك، وله مواقف أيام ملكه وقبله.

تعد حضارة داود عليه السلام وابنه سليمان حضارة وافرة الظلال ومتألقة بالضياء في الاستمرار والتواصل، لأنها استمدت منهجها من السماء، فانعكست آثارها على الحياة، فصار شعب داود -بني إسرائيل- يعيش في ظلال الهدى والإيمان.

وقد سميت حضارة داود بالحضارة الربانية لتدخل عنصر الإعجاز السماوي فيها، بتطويع الجمادات، وتسخير الطير، وإلانة الحديد، وغيرها من وسائل الحياة المتطورة ويدل على ذلك قوله

(1) سبأ، الآية: 10-11.

تعالى: **"وَاذْكُرْ عَبْدَنَا داوود ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ* إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ* وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ"** (1).

وقوله أيضا: **" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ* وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ "** (2)، فمن خلال الآيتين السابقتين تبين لنا أن الحضارتين قامتا على أساس رباني مما جعلهما تتميزان وتختلفان عن غيرهما من الحضارات السابق ذكرها، فقد كان لهما طابعا فريدا بين الحضارات السائدة في ذلك الزمن(3).

كانت حضارة داود في فلسطين وما حولها، فقد ثبت أن نبي الله داود عليه السلام استولى على بيت المقدس واتخذه عاصمة، ثم جاء بعده ابنه سليمان عليه السلام فأتم دورة هذه الحضارة التي اكتملت حقا على يده.

ولما كان العلم يستمد مرجعيته من الله تعالى، فهو علم مأمون العواقب، لا يلحق ضررا بالإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، وسخر له ما فيها من أجل بناء حضارة راقية ومزدهرة بعيدة عن الغرور والطغيان.

فكلما كان العلم مستمد من شريعة الله ،كلما أحرز الإنسان تطورا ونجاحا يدعوه إلى التواضع وشكر الله تعالى، لهذا نرى سيدنا داود عليه السلام كلّما منّ الله عليه بنعمة من نعمه، وكلّما ارتقى بحضارته ازداد تواضعا، فهو ينسب كل إنجازي حضاري لله تعالى، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: **"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ"** (4).

---

(1) ص، الآية: 16-19.
(2) النمل، الآية: 15-16.
(3) ينظر: توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص169.
(4) النمل، الآية: 15.

فهذه الآية توحي بتواضع الأنبياء أمام قدرة الله في بسط النعمة على عباده الشاكرين[1].

وقد ذكرت حضارة داود في آيات كثيرة من الكتاب العزيز وكلها تشير إلى نعم الله، التي أنعمها عليه، واختياره له ليكون نبيا مرسلا وملكا قويا عزيزا، وإبراز مواقفه وانتصاراته على أعداء الله لإظهار كلمة الحق.

فالآيات السابق ذكرها تدل على أن حضارة داود عليه السلام كانت حضارة بناء وحضارة جهاد وقتال كيف لا؟و هو الذي تمكن من قتل "جالوت" رميا بالحجارة فأتاه الله الملك، وسبب له الأسباب، ويسرله السبل،و أعده لكي يقوم بالدرر الكبير، الذي رسمه له، فكان نبيا وملكا على بني إسرائيل في مشارقها ومغاربها[2].

وقد أنعم الله على سيدنا داود بأمور لم تكن لغيره من الأنبياء، تصديقا لنبوته ،وتدعيما لدعوته من أجل قيام حضارة راقية تتميز بمجموعة من الخصائص لم تكن واردة في غيرها من الحضارات، ومن جملة ما تتصف به حضارته نذكر ما يلي:

1- مميزات حضارة داود عليه السلام:

1- أنها حضارة تقوم على الجهاد في سبيل الله لقوله تعالى: **"وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ"**[3]، فهذه الآية تدل على حماسة وشجاعة داود عليه السلام وقوته في مقاومة أعداد الله، بالرغم من صغره فإنه تصدى لمبارزة جالوت.

2- هي حضارة إعجاز إلهي توفر لها مالم يتوفر لغيرها من المعجزات التي تساعدها على التطور والارتقاء لقوله تعالى: **"إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ "** [4].

(1) ينظر: محمد زعراط: معالم حضارية في القرآن الكريم، مجلة الحضارة الإسلامية، ص20.
(2) ينظر: توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص173.
(3) البقرة، الآية: 251.
(4) ص، الآية: 17-18.

3- أنها حضارة قائمة على العلم والمعرفة، فهي تستخدم مختلف الفنون والمعارف من أجل بناء عالم أفضل تزدهر فيه شريعة الله، كتعليمه منطق الطير لقوله تعالى: **" وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ"**[1].

4- أنها حضارة صناعية، فهي تعتبر العمل عنصر أساسي في قيام الحضارة، فقد ألان الله الحديد في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء دون حاجة إلى تسخين وهنا يكمن الإعجاز كما فهمه جمهرة المفسرين، وقد علمه الله صنعة الدروع من حلق الحديد، وكانت قبل ذلك تعمل على شكل صفائح فصارت مريحة تمكن من الحركة وتحصن المقاتل من العدو لقوله تعالى: **" وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ "** [2].

وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمل سيدنا داود عليه السلام يقول: **"إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده"**[3].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن حضارة داود عليه السلام كانت حضارة حربية مهيأة نفسها ومستعدة لقهر أعداء الله.

5- أنها حضارة قوية البنيان، وذلك لأن الله تعالى قواه في الملك وجعله منتصرا على أعدائه –قبل الملك وبعده- لقوله تعالى: **" وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ"** [4] أي قويناه بالهبة وكثرة الجند.

6- أنها حضارة ذات قيمة حكيمة، فهي تفصل بالعدل في الأمور، وتقضي بين الناس بالحق لقوله تعالى: **"وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ"**[5]، فالحكمة في أصلها اللغوي تعني وضع كل شيء في محله، فقد كان النبي داود عليه السلام يصيب في أمور القضاء ويفهمها فيقضي بين الناس بالحق والعدل... ويميز الحق

---

(1) النمل، الآية: 16.
(2) الأنبياء، الآية: 79.
(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث 2072، ج1، ص402 من طريق إبراهيم بن موسى.
(4) ص، الآية: 19.
(5) ص، الآية: 19.

عن الباطل تمييزا وضحا, وقد ذكر بعض المفسرين والمؤرخين أن ملك داود عليه السلام كان قويا عزيزا لأنه كان يسوسه بالحكمة والقوة معا، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه وفي ذلك يقول تعالى:" **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ** "أي قويناه

7- أنها حضارة تستمد عناصرها من السماء، فهي تسير وفق سنن الله تعالى فقد سن الله تعالى لحضارة داود منهجا أو قانونا تخضع له لقوله تعالى **"وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا"** [1]، وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه، والتضرع له، وبعض الأخبار المستقبلة كما قال تعالى " **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"**[2] والزبور عند أهل الكتاب يسمى بالمزامير، وكان داود عليه السلام حسن الصوت والإنشاد، وقد ضرب به المثل في ذلك، وليس في الزبور أحكام ولا أوامر ولانواه[3].

فقد كان داود عليه السلام حاكما عادلا، أقام ملكه على الإيمان والعلم وكانت نبوته رحمة على قومه، أنزل الله عليه الزبور وحببه في العمل، فكل هذه النعم التي أنعمها الله عليه، كانت بمثابة مقومات حضارية تعينه على صنع حضارة راقية ورائعة تقوم على الإيمان والحكمة والعلم، والتي تعتبر العناصر الرئيسية في قيام الحضارة وتطورها.

ومن خلال عرض ما سبق يظهر لنا أن حضارة داود عليه السلام قد امتزج فيها عنصر المادة بعنصر الروح، فهي منسجمة في منهجها مع طبيعة الإنسان، فكانت حضارة متألقة في الآفاق، وقد وصفها القرآن وصفا رائعا لقوله تعالى: **"وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ .* أَنِ اعْمَلْ**

(1) النساء، الآية: 163.
(2) الأنبياء، الآية: 104.
(3) ينظر عبد المجيد نجار: قصص الأنبياء، ص310-311، محمد توفيق سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص175-176.

سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.*" [1].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: "يخبر الله تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدة والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الداسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته[2] ثم قال: **"لقد أوتي هذا مزمار من مزامير آل داود"**[3].

وهكذا كانت حضارة داود عليه السلام لأنها اعتمدت على العلم والعمل كقيمتين أساسيتين في قيامها، مستمدة منهجها من السماء، فكانت حضارة ربانية مزدهرة في رحاب الله نافعة جليلة، فقد تجمعت في حضارة داود عليه السلام عناصر جعلتها متألقة والمتمثلة في العلم والعمل والحكمة، فالعلم يخطط، والعمل يجسد، والحكمة تصوغ وتضع كل شيء في موضعه بدقة، فيأتي العمل على أجمل وجه وأروع صورة، ومن ثم شكر الله تعالى والتواضع أمام نعمة التي أنعمها عليه.فارتباطها بالعلم الذي يضمن لها الاستقرار، والإيمان الذي يجنبها السقوط والتدني أهلها بأن تكون حضارة راقية على جانب من الروعة والجمال.

وكانت مدة ملك داود عليه السلام أربعين سنة، ثم جعل ابنه سليمان عليه السلام ولي عهده قبل أن يموت، ومات وهو شيخ كبير[4]، فكيف كانت حضارته؟ هذا ما سوف نبنيه في المطلب الموالي.

---

(1) سبأ، الآية: 10-11.
(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص2354.
(3) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القرآن ، باب حسن الصوت بالقراءة.للقرآن، رقم الحديث5048، ج3،ص1042.
(4) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص314.

المطلب الثاني: حضارة سليمان عليه السلام

ملك سيدنا سليمان بعد أبيه داود عليه السلام أمر نبي إسرائيل، وجاء ذكره في القرآن الكريم ست عشر مرة، كما جاء في القرآن الكريم العديد من الآيات في النعم التي أنعمها الله عليه[1].

ورد وصف حضارة سليمان عليه السلام في القرآن الكريم في الكثير من آياته، فكل آية تعرض جانبا من تلك الحضارة، وهي متممة لحضارة داود عليه السلام، فهما بمثابة حضارة واحدة، إلا أنها كانت محفوفة بالمعجزات، وكثرة التسخير، وجمال المظاهر، ومكانها هو بيت المقدس وما حوله، فقد قال تعالى: **"وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ*. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ*"**[2].

ويقول سبحانه وتعالى واصفا تلك الحضارة في موضع آخر: **"وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ* حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ**

(1) المصدر السابق، ص317.
(2) سبأ، الآية: 12-13.

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" [1].

فهذه الآيات توضح لنا مقومات تلك الحضارة التي تتمثل في العلم والعمل، اللذان تستمدانهما من الله سبحانه وتعالى، كما أنها تبين لنا المعجزات التي تعمها والمتمثلة في الجيش القوي والجند الكثير من الجن والإنس، والريح والطير... إلى غير ذلك من الخوارق.

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم كمواقف أنعم الله بها على سيدنا سليمان عليه السلام. تتكامل وتتوحد فيما بينها لتعطي لوحة حية معبرة لحضارة مكتملة زاهية.

مقومات حضارة سليمان عليه السلام

أنعم الله على سيدنا سليمان عليه السلام بمجموعة من النعم، فقد طلب سيدنا سليمان من ربه أن يهبه ملكا لا مثيل له، فرزقه الله تمكينا هائلا، وأعطاه العلم بلغة الحيوان، وسخر له الطير والجن، وأوتي علم لغة النمل والطير، كما منحه أجود الخيول لاستخدامها في الجهاد[2].

فهذه المقومات التي امتن بها الله على نبيه انعكست آثارها على حضارته، فبلغت ذروتها في التطور والارتقاء فكانت حضارة راقية ذات مدن رائعة، ومناظر خلابة، وقوى حربية مجندة ومستعدة للدفاع عن شريعة الله.

وارتكزت هذه الحضارة في قيامها على العلم والعمل والحكمة فأما العلم فيشير إليه قوله تعالى: **" وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا**

(1) النمل، الآية: 15-19.

(2) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1995، ج1، ص69.

وَعِلْمًا"[1] وكذلك قوله تعالى:" **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ*"**[2].

وأما العمل فيشير إليه قوله سبحانه وتعالى: **"اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا"** [3]، وقوله أيضا في موضع آخر: **"يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ"**[4]، فقد سخر الله له من الجن عمالا يعملون ما يشاء، ولا يخرجون عن طاعته، وأما الحكمة فتتمثل في أن الله منحه الذكاء وإصابة الحكم منذ صباه، ويدل على ذلك قصة الحرث الذي نفشت فيه غنم غير أهله، فقد وفق إلى الحكم الأقوم وقد ذكر في القرآن في قوله تعالى: **" وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ "** [5].

ومن خلال تلك المقومات يتبين لنا أن حضارة سليمان عليه السلام امتزج فيها الجانب المادي المتمثل في العلم والعمل بالجانب الروحي الذي تمثل في الحكمة، فلقد استطاعت بالحكمة أن تضع كل إنجازاتها في خدمة الأهداف النبيلة، من أجل الهداية والإيمان، فقد تمكنت من تشييد الصروح والمحاريب والأبنية العظيمة لخدمة الإيمان وخدمة الإنسان[6].

مميزات الحضارة السليمانية :

(1) الأنبياء، الآية: 78.
(2) النمل، الآية: 15.
(3) سبأ، الآية: 13.
(4) سبأ، الآية: 13.
(5) الأنبياء، الآية: 78.
(6) ينظر: توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص189-191.

تميزت حضارة سيدنا سليمان عليه السلام بمجموعة من الخصائص جعلتها تنفرد عن باقي الحضارات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، ومن بين هذه الخصائص ما يلي :

1- إنها حضارة إعجاز إلهي حيث تم إنجازها بقوى مذهلة ومتنوعة، فقد سخر الله له الطير والريح، والجن، والإنس وكل عنصر من هذه العناصر له مكانه الخاص في إقامة الحضارة وتشيدها، ويتم التنسيق بينهما بقيادة حكيمة، والمتمثلة في قيادة سيدنا سليمان عليه السلام، ولقد بلغ من وعيه أنه كان يحشد جند مملكته على شكل استعراض عام لجيش منظم ثم يتفقد صفوفهم فيعرف من غاب من بينهم، وقد تفقد الطير يوما فلم يجد الهدهد في موضعه من محل خدمته فتوعده بالعذاب مالم يأتي بالحجة أو العذر، هكذا كانت قيادة سليمان عليه السلام حازمة وقوية ومتيقظة.

2- أن الله تعالى طوّع لها من الكائنات وسخر لها كل ما في الكون، وجعل كل شيء ميسرا وسهلا في يد سليمان عليه السلام، فقد سخر الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ويأتونه بالجواهر واللآلئ التي يحتاج إليها للبناء والتزين، بالإضافة إلى تسخير الرياح التي تستخدم في دفع السفن، وتلقيح الزرع بأمر سليمان، فهو يصرفها بأمره ،كما يصرف الإنسان عنان دابتّه، والطير تنجز من المهام ما يسند إليها، فقد كان الهدهد يأتي بالأخبار وينقل الرسائل، والخيول معدة ومجهزة للجهاد، هذا هو الإعجاز الإلهي، فقد سخر الكون كله بإرادة الله تعالى ويسر كل صعب بتقوى الله ومشيئته.

3- إنها حضارة عمل، فرغم ما سخر لها من الوسائل والإمكانيات التي تقعد أصحابها عن العمل، إلا أنها كانت تعمل بجد واستمرار، فكانوا يستثمرون الوسائل المسخرة بأمر من الله

ويقومون بإنجاز الأعمال الخارقة، فأنشأوا المباني والعمائد والتماثيل، وقد كان سيدنا سليمان ينقاد له النحاس سائلا فيتفجر له لكي يستخدمه في صناعات ونحوها مما يحتاج إليه، بالإضافة إلى عمله في التجارة والتي حقق منها ربحا لا يحصى ولا يعد، وكل هذه الأعمال كانت تكليف من الله تعالى وهذا ما يدل عليه قوله تعالى **"اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا"**[1] فهو تكليف يدعو إلى الاستمرار في العمل وإتقانه.

4- أن العمل بشريعة الله والخضوع إلى قوانينه، والنواميس التي سنها الله تعالى، وإخلاص القلب لله، والتوجه إليه بالشكر، والامتنان، هي التي تمكن من بقاء الحضارة وإرتقائها، فحضارة داود عليه السلام وسليمان عليه السلام دائما ارتقت وتطورت وشادت في رحاب الإيمان، بخلاف حضارة عاد وثمود فإنه نتيجة كفرانها وعصيانها، وإنكارها لله تعالى، بادت وذهبت رغم ما حققته من تطور وازدهار وما كانت تملكه من المقومات المادية.

5- إنها حضارة ذوق وجمال في النحت المتمثل في المعابد وما فيها من دقة في صنع الجفان والقرار والراسيات، فهذه الحضارة بلغت من الرقي والجمال ما لم تبلغه أي حضارة أخرى من صنع البشر، ففيها الزينة المتمثلة في الخيول الصافنات، والزخرفة المجسدة في الترصيع بالياقوت والأصداف، بالإضافة إلى الصرح الممرد من قوارير[2]، كل هذه العناصر المادية المتشابكة لتلك الحضارة، لم تستطع أن تستعبد قلب سليمان، وإنما كان متواضعا وخاشعا لله تعالى فما من نعمة أنعمها الله عليه إلا وكان شكورا له، واعترف بفضله عليه لقوله تعالى: **" وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ* "** [3].

(1) سبأ، الآية: 13.
(2) ينظر: محمد توفيق سبع: قيم حضارية في القرآن، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص193.
(3) النمل، الآية: 15.

ومن خلال استقرائنا لحضارة سيدنا سليمان عليه السلام يتبين لنا أنها حضا كانت قائمة على منهج الله تعالى، فقد تمكن من تطبيقه تطبيقا كاملا مما جعلها تزدهر وترتقي وتصل إلى مبلغ لم تصله أية حضارة من قبل، كما أنه لم يغتنه الملك الكبير الذي كان يملكه حتى يجعله يخرج عن طاعة الله، وإنما سخره واستخدمه في خدمة الله تعالى وفي خدمة البشر.

دلت الآيات في القرآن الكريم على أن سيدنا سليمان كان يفهم لغة الطير، وأنها كانت مسخرة له يستعملها في بعض مهماته، ومن بين هذه الطيور الهدهد فقد تفقده ذات يوم فلم يجده، فتوعده وهدده بالذبح أو التعذيب، إلا إذ أتاه بعذر أو حجة يبرر بها سب غيابه. فلما جاء الهدهد أخبره أنه كان في سبأ من بلاد اليمن بها ملك عظيم، وملكة تملك على تلك الأمة، وأنهم وثنيون يعبدون الشمس، هذا ما سنحاول تفصيله في المبحث الموالي.

المبحث الثالث: حضارة سلميان وبلقيس (الحضارة السبئية)

المطلب الأول : الحضارة السبئية قبل سليمان عليه السلام

ورد ذكر سبأ في القرآن الكريم في موضعين، الأول في سورة النمل وفيه تفصيل لما جرى بين بلقيس وسليمان وقصة الأخدود، وما كان بين النصارى واليهود، والثاني في سورة سبأ وفيه حديث عن النعم الربانية التي تمثلت في الجنان، وسد مأرب، وسيل العرم، وتفريق القبائل،وسوف نتحدث عن هذه الحضارة كما وصفها القرآن الكريم من خلال آياته.

أ- التعريف بهم وموطنهم :

سبأ هي إحدى ممالك بلاد العربية الجنوبية، موقعها اليمن، وعاصمتها مأرب، وملكتها بلقيس التي حكمت تلك المنطقة حكما شوريا في ،منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ،لأنها كانت تعاصر سليمان وكان ذلك سنة 950 ق.م، وهي إحدى ملوك حمير المعروفين، وكانت وثنية تعبد الشمس[1]، وبالرغم من ذلك فإنها استطاعت أن تقيم حضارة زاهرة مستكملة الجوانب المادية، تقوم على الزراعة، نظرا لخصب أراضيها وملاءمة مناخها، وكذلك بناء السدود وإنشاء الجنات والبساتين.

فالحضارة اليمنية حضارة عريقة منذ القدم، فقد عرفها اليونان وغيرهم، وعرفوا المدنيات التي قامت فيها، فسموها بالعربية السعيدة[2].

(1) عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص116.

(2) عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس، ص516.

ونظرا لما وصلت إليه سبأ من تقدم في حضارتها نتيجة للغنى والرفاه والنعم التي أنعمها الله عليها، فقد كانت عرضة للاستعمار من طرف الأحباش والفرس، ودارت على أرضها وقائع كبيرة خاصة بين النصارى واليهود، وقصة أصحاب الأخدود[1].

لقد منّ الله تعالى على سبأ بكثير من النعم الجليلة التي تستوجب الشكر، فمكن لهم العيش في الأرض، وأعطاهم الله من كل شيء، كما توحي بذلك الآيات فأقاموا حضارة راقية، قامت على الزراعة، نظرا لخصب أراضيها وملاءمة مناخها وتتلخص مقومات هذه الحضارة فيما يلي :

ب- مقومات الحضارة السبئية

1- الثروة الزراعية:

استطاعوا التحكم في ماء الوديان بإنشائهم منبعا عند مدينة مأرب سمي "سد مأرب" وكان ذل السد بين جبلين، وتحكموا في مياه السد في ري أراضيهم وبساتينهم، كما أنهم بفضله استطاعوا أن يحولوا مساحات كبيرة من الصحراء إلى بساتين وجنات كانت آية في النعيم والثراء ولقد وصفها الله تعالى بقوله: **"بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ "**[2]، أي هذه بلدة ذات ظل وارف وثمار وخيرات هي بلدتكم، وربكم كثير المغفرة والعفو لمن شكره[3].

2- اعتدال المناخ :

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1971م، ج2، ص132.
(2) سبأ، الآية: 15.
(3) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي، تح: مجدي منصور، المكتبة التوقيفية، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ج3، ص408.

فقد كانت بلاد سبأ طبية لا يرى فيها بعوض ولا ذباب ولا عقرب ولا حية ولا برغوث أو أي شيء من الهوام، وذلك لاعتدال المناخ وصحة المزاج وعناية الله بهم ليعبدوه ويوحده، وهذا ما أشار إليه الزمخشري في تفسيره[1].

3- ازدهار التجارة:

كان خصب أرض سبأ مضرب للأمثال عند العرب، وكان أهلها يعيشون من أراضيهم فازدادت المساحات الزراعية، وخاصة حول سد مأرب مما كان سببا في ازدهار تجارتها، ورخائها الاقتصادي الذي يعتمد على الثروة النباتية لا الحيوانية، فقد كان السبئيون يتحكمون في الدرب التجاري أحسن تحكم، ضف إلى ذلك موقعها المتوسط بين الحبشة والهند والصومال والشام والعراق كل ذلك ساعد على ازدهار التجارة وما تدره عليهم من أموال[2].

4- أمن الطريق:

وهي نعمة من النعم التي منّ بها الله عليهم، فكان الطريق بينهم وبين القرى المباركة، مكة في الجزيرة العربية، وبيت المقدس في الشام ،ينعم السائر فيه بالأمن، فالطريق بينهما عامر مطروق ومسلوك مأمون لقوله تعالى: **"وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ"**[3] أي أن الأمن حاصل لهم في سفرهم ليلا ونهارا، وأن مسافر هم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء حيث نزل[4]، كان السفر فيها محدود المسافات، مأمونا على المسافرين، كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل واتصال العمران.

(1) أبو القاسم جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،ج3،ص253

(2) ينظر: بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، ج1، ص332.

(3) سبأ، الآية: 18.

(4) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص2362.

من خلال تلك المقومات يتضح لنا أن حضارة سبأ بلغت درجة رفيعة من التطور والرقي، فقد كان أهلها مهرة في فن العمارة والنحت، ويدل على ذلك ما خلفوه من مدن محصنة، وقصور وهياكل قائمة في أنحائها، كما امتازوا بالتجارة والزراعة، فقد زرعوا السهول المنبسطة وسفوح الجبال وحولوا العديد من الصحاري إلى بساتين وجنان، وتشيد السدود للسيطرة على الأمطار والاستفادة من السيول، فقد كانت حضارة سبأ تتمتع بتقدم اجتماعي وثراء وافر، ويدل على ذلك النقوش التي خلفها حكامها على مدى تقدمهم، ومن بين تلك النقوش مجموعة من القوانين التي تنظم شؤون الملكية العقارية.

بالإضافة إلى ذلك أنها كانت مملكة تجارة وقوافل، فمعظم السفن ترسو على شواطئها وتجلب إليها البضائع من الهند والصين، وكانت مأرب تتقاضى الضرائب على البضائع المارة بها، مما يدل على أنه هناك تبادل تجاري بين الجنوب والشمال في شبه الجزيرة العربية[1].

كان هؤلاء القوم في أول الأمر مسلمين، فأجرى الله لهم الخير الوفير، لكن بتقادم العهد واستمرار النعمة ولينها انحرفوا عن عبادة الله وتمردوا وعبدوا الشمس في أيام بلقيس، فصحح لهم الله عقيدتهم على يد نبيه سليمان عليه السلام، فدعا ملكتهم للإسلام فأسلمت، مما جعل أحوالهم تتحسن وحضارتهم ترتقي وتزدهر إلى الأحسن، فاكتملت تلك الحضارة في اليمن عندما كانت البلاد مستقرة وتعيش في ظل عقيدة دينية سمحة ،يوم تم الاتصال التاريخي بين بلقيس ملكة سبأ وسليمان عليه السلام وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم، في سورة النمل. ولا بد لنا أن نقف أمام آيات من سورة النمل، والتي تحدثت عن قصة ملكة سبأ وما جرى بينها وبين نبي الله سليمان عليه السلام، هذا ما سنحاول تفصيله في المطلب الموالي :

(1) ينظر: توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص195، عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص118.

المطلب الثاني : سليمان وملكة سبأ (بلقيس)

1- قصة سليمان وملكة سبأ كما وردت في سورة النمل :

ملخص القصة كما وردت في القرآن الكريم، أن سليمان عليه السلام كان يهتم بجنوده فيحشد جيشه ثم يستعرضه، وفي يوم من الأيام تفقد الطير من بين الصفوف، فلم يجد الهدهد فتوعده بالعذاب الشديد إن لم يبرر غيابه، فأنبأه الهدهد بأنه ذهب إلى سبأ من بلاد اليمن وأنه وجد امرأة تملك ملكهم، وتحكم بينهم ولها عرش عظيم، وأنهم وثنيون يعبدون الشمس من دون الله، فأراد سليمان عليه السلام أن يختبر الهدهد أصادق في خبره أم كاذب؟ فأعطاه كتابا ليوصله إلى الملكة، فذهب الهدهد بالكتاب وألقاه على سريرها، فأخذته وقرأته مندهشة لأنه كان يدعوها إلى الإيمان، ثم جمعت قومها لتأخذ رأيهم في أمر هذا الخطاب ومضمونه، فأكدوا لها جميعا أنهم أقوياء، فإذا رأت الملكة أن يحاربوا فهم على استعداد، فوضوا لها الأمر، لكن المرأة اختارت المفاوضة بدل الحرب نظرا لما تجلبه الحرب من الفساد، وبعثت إليه بهدية فخمة حتى تعرف مدى جدية سليمان -عليه السلام- إلى الإسلام، إلا أن سليمان- عليه السلام -رفض الرشوة المتمثلة في الهدية واحتر المال، وأكّد لها إن لم تحضر إليه مسلمة فسيرسل إليها جيشه القوي[1].

وعلى إثر التهديدات جاءت تسعى إلى سليمان الذي أعد لها مفاجأة تتجلى فيها القوة والسلطان، وهو إحضار عرشها العظيم الذي تتباهى به ليريها ضعفها أمامه وهزيمتها أمام قوته، فإحضار العرش دلالة على معجزة سيدنا سليمان، ومظهر لقدرة الله ، وانتصار للحق، وهزيمة للباطل الذي تمثله ملكة سبأ، ثم بنى لها صرحا من زجاج وضعه على سطح الماء إظهارا لفخامة ملكه وعظمة سلطانه، أما هي فعجبت حين رأت العرش ووقعت في حيرة لأنها لم تجزم بأنه ليس هو، لأنه يشبهه تماما، ولم تثبت أنه هو لأنها تركته وراءها فما الذي جاء به ووضعه أمامها بل اكتفت

(1) ينظر: عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ص 333-334.

بقولها "كأنه هو"، ولما أرادت دخول الصرح والوصول إلى العرش، ظنت الزجاج ماء فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها بالماء فقيل لها: "إنه من قوارير" أي زجاج يبدو كالماء وما هو بماء، فأدركت خطأها، وعرفت أنها لا تملك شيئا بالقياس إلى قوة سليمان، وأنها عاجزة عن مقاومته، كما أدركت أنها على باطل لأنها مشركة بالله، فأسلمت نفسها وقالت: **"رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "** [1].

وأهل التفسير يذكرون أن سليمان تزوج منها وجاء بولد يزعم بعض ملوك الحبشة أنهم أبناء سليمان من الولد الذي أتى به منها[2].

***خلاصة قصة سليمان مع ملكة سبأ:**

نستخلص في نهاية كلامنا الموجز من قصة سليمان مع ملكة سبأ: أن أهل سبأ زمن ملكتهم بلقيس بلغوا إلى مرحلة متقدمة من الغنى والرفاه لقوله تعالى: **"وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ "**[3] فهذا الشيء شامل لكل مظاهر وأنواع الخير والقوة والتمكين، فقد منحها الله من كل شيء طرفا سواء كان في الأمن أو الاستقرار أو الزراعة، وأن ملكتهم كانت تشاور قومها في حكمها، فلم تكن تتخذ القرارات وحدها، بل كانت تشاور كبار دولتها وتأخذ بمشورتهم وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: **" قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ "**[4] مما يدل على أن ملكة سبأ كانت متقدمة في نظام حكمها بخلاف أنظمة الحكم الاستبدادية التي كانت سائدة في ذلك الزمان، فقد كان الحاكم أو الملك هو الذي يقرر ما يشاء وما على الرعية إلا اتباعه، والموافقة على أوامره وتنفيذها،

(1) النمل، الآية: 44.
(2) المصدر السابق، ص334.
(3) النمل، الآية: 23.
(4) النمل، الآية: 32.

وأن سليمان لما علم بها عن طريق الهدهد دعاها إلى الإيمان، فأرسل إليها خطابا وكان هذا الخطاب مختصرا بليغا، فكل كلمة فيه اختيرت بعناية إلا أنه ورغم اختصاره، فقد أبقى سيدنا سليمان على البسملة، مما يوحي على أهميتها وافتتاح الكتب بها، كما يوحي أيضا إلى طابع الهداية الربانية فهو يدعو باسم الله، لا باسمه، ولا باسم ملكته، لأن هدفه أن يسلم الناس لرب العالمين، وقد أعدّ لها مفاجآت عرفت منها ضعفها وعجزها وأيقنت قوته وتقدمه وأن أمره ليس أمر ملك دنيوي، وإنما هو أمر العقيدة والإيمان فدخلت في دين الله وأسلمت لله رب العالمين وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: **" إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "**[1]، فكل المعجزات التي رأتها هيأت قلبها للإيمان لهذا أعلنت إيمانها من غير تحفظ، وبدأت عهدا جديدا مع الله تعالى[2].

2- حضارة سبأ من خلال القرآن الكريم (سورة سبأ)

وصف القرآن الكريم الحضارة السبئية وصفا رائعا، حين كانت تنعم بظلال الإيمان في عهد ملكة بلقيس، إلاّ أن أهل سبأ كفروا بالله بعد موت بلقيس وأشركوا به، فحقت عليهم سنة الله وأوقع الله بهم العذاب، فكانت عاقبة أمرهم السيل الجارف، وقد عرض القرآن الكريم هذه المأساة في آيات قصيرة صورت لنا مصير هذه الحضارة أبدع تصوير بعدما كانت تنعم في الغنى والترف وهذا دليل على إعجاز القرآن الكريم في تصويره للحضارات و وصفها ففي قوله تعالى: **"لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ* فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم**

(1) النمل، الآية: 46

(2) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: مع قصص السابقين في القرآن، دار القلم، دمشق، ط4، 1425هـ2004م، ص648-654،ينظر: محمد توفيق سبع، قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، ج1، ص200-201.

بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ" (1).

فهذه الآيات القصيرة رسمت لنا أطوار حضارة كاملة في جمل قصيرة، أبدع الله في تصويرها من حيث قيامها ومقوماتها واندثارها، فقد جاء شاملة لكل مراحل تطور الحضارة في آيات قصيرة، وهنا يكمن الإعجاز البلاغي الذي هو نوع من أنواع الإعجاز القرآني(2).

فالآيات تعرض لنا تقلب الحضارة الإنسانية بين الإيمان والكفر، فقد كانت في ظل الإيمان حضارة زاهرة مستكملة جميع عناصرها، فقومها كانوا متنعمين بالنعم التي امتن الله بها عليهم ،والمتمثلة في الجنان والتجارة الرابحة والصناعة الكثيرة، وكلمة "آية" توحي إلى النعم التي منحها الله لسبأ فهي على قصرها فقد جاءت موجزة معبرة ومصورة لكل النعم.

وكذلك "جنة" فهي توحي بما منحهم الله من غنى ونعم ووفرة الثمار، فالجمل رغم قصرها فهي معجزة، تقدم للقارئ صورة فنية لتلك النعم التي وهبها الله لسبأ، وهذا دليل على إعجاز القرآن الكريم.

فبالرغم من كل هذه النعم، إلاّ أنهم كفروا بها واستعملوها في معصية الله لقوله تعالى: " **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**" (3) أي كفروا بالله ورفضوا عبادته وشكره وتولوا عن طاعته، واتبعوا الشياطين، وبذلك حقت عليهم سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل وتحكم البشرية كلها، وهي العذاب أو العقاب، فما من أمة تكفر بالله إلاّ ويحلّ بها عذاب الله، فيسلبها النعم، ويوقع بها الهلاك.

فكانت نتيجة قوم سبأ العقاب السريع، كما توحي بذلك "الفاء" "فأرسلنا عليهم سيل العرم" والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب الفوري(4).

---

(1) سبأ، الآية: 15-17.
(2) عبد الحميد ابن باديس: تفسير ابن باديس، ص517.
(3) سبأ، الآية: 16.
(4) عبد الفتاح الخالدي: مع قصص السابقين في القرآن الكريم، ص 660.

3- عاقبة أمرهم:

1- أهلك الله سبأ بالماء لقوله تعالى: "فأرسلنا عليهم سيل العرم" والعرم سيل مجتاح مدمر يحمل معه الحجارة، وكان من أثره تحطيم سد مأرب الذي كان يحجز الماء عنهم، فنقضه الله وأرسل الماء من ورائه سيلا جارفا، عمّ جناتهم فأتى عليها وأهلكها[1].

فالله سبحانه وتعالى جعل الماء نعمة من النعم التي أنعمها عليهم، وجعله وسيلة للتقدم والرقي عندهم، فلما أشركوا وأعرضوا حوّل نعمته عليهم إلى عذاب، فأرسل عليهم سيلا عرما من خلف السد، وكان بهذا الماء تدمير جناتهم وهلاك مزروعاتهم. بالماء عاشوا أغنياء، وبالماء نفسه ذلوا وافتقروا.

2- البديل المر: بعدما أرسل الله عليهم سيل العرم، وأهلك جنتيهم أبدلهم الله بتلك الجنان الفيح إلى صحاري للشوك والخمط، وقد أشار القرآن الكريم إلى البديل المر الذي كان لهم بقوله تعالى: **" وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ "** [2].

فالجنتان بقيتا من حيث الظاهر لا من حيث الحقيقة، إذ ذهبت أشجارهما وثمارهما، وأنبت الله مكان تلك الأشجار أشجارا صحراوية مرة، لا تسمن ولا تغنى من جوع كأشجار الطرفاء والأثل والنبق.

قال ابن كثير رحمه الله: "فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجرة الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير، والثمر القليل"[3].

---

(1) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص2362.
(2) سبأ، الآية:16.
(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص2362.

وقال سيد قطب رحمه الله "أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرف الحميد، فيما أنعم الله عليهم، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه، وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة لشدة تدفقه، فحطم السد، وانساحت المياه فطغت وأغرقت، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك، فجفت واحترقت، وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء، تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة"[1].

باعد الله بين أسفارهم وجعل الرحلة في طرقهم شاقة وقاسية، بعدما كان العمران متصلا بينهم وبين القرى المباركة، والطريق بينهما عامر ومأمون، فكان السفر فيها محدود المسافات، مأمونا على المسافرين كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل، إلا أنهم أمعنوا في الفساد فقالوا: **" رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"** [2].

قال الزمخشري رحمه الله : "بطروا النعمة، وبشموا من طيب العيش وملوا العافية ،فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنوا إسرائيل الثوم والبصل بدل المن والسلوى"[3]، فاستجيبت دعوتهم ومزق الله شملهم وفرق جمعهم في أنحاء الجزيرة، وجعلهم أحاديث يرويها الرواة، ويتحدث بها الناس في كل زمان ومكان، ليكونوا بذلك آية تدل على قدرة الله وعظمته.

وبذلك تحولت سبأ من قوم كانوا ملء السمع والبصر، إلى قوم زالوا وبادوا، وأصبحوا مضرب الأمثال، وأخبار السابقين، وأحاديث المجالس.

وتظل قصة سبأ تقدم الكثير من الآيات والدلالات والعبر، فهي درس لأصحاب الحضارات الغنية على أنهم مهما بلغوا من الرقي والتقدم، لا بد من شكر النعمة، لأن شكر النعمة هو سر بقائها.

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 5، ج22، ص2901.
(2) سبأ، الآية: 19.
(3) أبو القاسم جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التفسير، ج3،ص:286

وخلاصة لما سبق يتبين أن ما أورده القرآن الكريم من حضارات إنما هو عبرة لأولي الألباب الذين يقفون عليها ويستخرجون ما فيها من دروس ودلالات ويراعون العوامل التي تؤدي إلى ازدهار الحضارة، والأسباب التي تؤدي إلى سقوطها وتدهورها، فالقرآن الكريم هو الأساس والمنطلق لقيام الحضارة، فكم من حضارة قامت وازدهرت إلا أن انحرافها عن الله سبحانه وتعالى جعلها تنهار، ويصبها الدمار، وذهب أصحابها ولم يعبأ لها التاريخ، وكم من حضارة ازدهرت في ظل الإيمان واستقامت على أمر الله، وأدت رسالتها كالحضارة السليمانية والداودية إلا أنهما لم تعمرا أكثر من عمرهما المقدور، فالحضارة السائدة والباقية هي الحضارة الإسلامية المستمدة مبادئها من الشريعة الإسلامية ودستورها القرآن الكريم.

وقد انفرد القرآن الكريم في وصفه لهذه الحضارات بعرض متميز، له خصائصه وسماته الفنية المختلفة عما أوردته المصادر التاريخية،هذا ما سنحاول تفصيله في الفصل الموالي.

تمهيد :

ينفرد القرآن الكريم بأسلوبه المتميز، وبلاغته الفائقة، ونظمه البديع في عرضه لقصص الأنبياء والمرسلين التي تحشد بين ثنايا سوره الكريمة عرضا تصويرا معجزا. يأخذ بمجامع القلوب، ويستحوذ على الأذهان، دون أن يكون للوهم والخيال دخل أو أثر، وذلك بغية تحقيق الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن الكريم وهو الغرض الديني الذي من أهم جوانبه جانب الاعتبار والاتعاظ.

ولهذا نجد القرآن الكريم دائما يدعونا للتعمق في الدراسات التاريخية لما تحتويه من مواعظ وعبر، وحتى يزداد أولو الألباب عبرة و بصيرة لقوله تعالى: **"وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "**[1] أي كل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف نجاهم الله والمؤمنين بهم، هي قصص حق ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون[2].

وعلى هذا الأساس جاءت قصص القرآن متفردة ومتميزة عما تجده في كتب التاريخ هذا ما سنحاول تفصيله في المبحث الموالي.

(1) هود، الآية: 119.
(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1492.

المبحث الأول:السمات الفنية للعرض التاريخي

من الأنباء الغيبية التي أتى بها القرآن الكريم الإخبار عن قصص الأولين من الأنبياء، بأبلغ كلام، وبتناسق لا يعرف له مثيل، فقد صحح ما نقله التاريخ خطأ، وما ورد في الكتب المقدسة السابقة، مما جعله يمتاز بالدقة المتناهية، كيف لا؟ وهو الكلام المنزه عن الخطأ، إلاّ أن القرآن الكريم حين عرضه لقصص الأنبياء والمرسلين، فإنه يسوق القصة في معرض فني مؤثر يبلغ في تأثيره درجة قوية في تحريك النفوس وإيقاظها. فيستوي في ذلك التأثير المعجز والصياغة الفنية القائمة على التشخيص والتصوير، هذا ما سنحاول التطرق إليه وتبيانه في هذه المطالب.

المطلب الأول: أسلوب العرض التاريخي

يمتاز القرآن الكريم، في عرضه لموضوعاته بطريقة لم يسبق إليها، ولا يستطيع أي أحد أن يسلكها أو ينتهجها، لأنه يتخذ أسلوبا متميزا ينفرد ويختص به عن باقي الكتابات، فتراه حين يعرض قصصه، يأتي بوجوه متعددة وأساليب متنوعة، وأفانين متجددة، حسب ما يراعيه المقام في كل حادث من حوادثه، وحسب ما يقتضيه الحال، فله في كل مقام مقال، وفي كل موضوع مجال، فهو لا يهمل أي جانب من جوانب القصص وإنما يراعي كل تلك الجوانب، بغرض تحقيق الهدف الأسمى والمتمثل في الهداية والموعظة[1].

لهذا نجد القرآن الكريم في تعامله مع الوقائع التاريخية لم يكن يهدف منها التاريخ، وإنما كان يسوقها لأجل خدمة موضوعات الدعوة في عهد النزول، وما بعده من الأزمنة المتعاقبة، فهي تمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل، ويعرض قصة

(1) أحمد جمال العمري: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1406هـ 1986م، ص9.

الدعوة إلى الله، واستقبال البشرية لها جيلا بعد جيل عبر العصور، إما بالاستجابة والقبول، وإما بالرفض والجحود[1].

فقد كان الغرض من عرض قصص الأنبياء والرسل، هو تبيان حقيقة الدين وإعطاء نظرة تاريخية عن الرسل والرسالات، وكيف كان استقبال البشرية لكل دعوة جديدة.

وهذا ما أشار إليه الطاهر بن عاشور-رحمه الله- في كتابه التحرير والتنوير، فيقول: "ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها من التفكه بها، من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب التاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها بغرض تحقيق الذكرى والموعظة"[2].

وعلى هذا الأساس فإن القرآن الكريم وهو يتناول قصص السابقين لم يكن يصور الأحداث القصصية بغرض التنبيه على حال الأمم السالفة، أو لغرض التسلية وجذب الأسماع، وإنما اجتمعت في قصص القرآن أغراض سامية تقوم على تحقيق الإيمان، وترسيخ أصوله في القلوب، فغلب عليها الجانب الروحي السامي الذي اقترن في الحقيقة بالعبرة الجليلة والعظة الغالبة، فالقرآن الكريم كتاب دعوة دينية أولا وقبل كل شيء، وفي تضاعيف السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد غرض الدعوة وضوحا ويبين منهجها الذي تسير وفقه البشرية، والذي لا يختلف ولا يتخلف وإن اختلفت العصور[3].

---

(1) ينظر: لخضر العرابي: أغراض القصص القرآني عند سيد قطب، دار الغرب للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص285.

(2) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحديد والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ط، 1997، مج1، ج1،
ص64 (المقدمة السابقة، قصص القرآن)

(3) محمد السيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، جامعة
الإسكندرية، ط2، 2003، ص67.

فالقرآن الكريم أخضع وقائع التاريخ إلى حقائق دينية، كإثبات الوحي، وتثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وترسيخ العقيدة في النفوس ومثال ذلك قوله تعالى: **"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"** (1).

فهذه الآيات سيقت من أجل إثبات العقيدة وبيان حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية وما بينهما من علاقة ذات رباط قوي، فجاءت في قالب قصصي تاريخي لما له من تأثير قوي في النفوس، وما ينطوي عليه من الحكم السامية والحقائق الواضحة، وما يتسم به من طابع الرفعة والسمو في معانيه الشريفة.

إن أسلوب القرآن الكريم متفرد في عرض القصص، فهو يختلف عما نجده في كتب التاريخ لأنه لا يورد القصص متتالية ومتعاقبة في سورة أو سور، وإنما يورد جانبا منها يتعلق بالغرض الذي يسمو إليه، وعلى هذا الأساس جاءت القصص في القرآن الكريم مفرقة، وموزعة على مقامات تناسبها. فلم يورد القصة من بدايتها حتى نهايتها ليقرر أحداثا تاريخية محددة، بل كان القرآن يورد القصة على طريقته الفردية المتميزة لأداء الغرض الديني(2).

ومن ثم فإن القصص التاريخي في القرآن لا يهدف من ورائها إلى سرد الوقائع والأحداث كما ذكرت، وإنما هو يعمد إلى اختيار الحدث الذي يخدم الغرض الديني أو ما يتعرض له من القضايا ليقدمه في عرض فني متناسق من خلال القالب

(1) الأنعام، الآية: 76-80

(2) محمد بن لطفي الصباغ: بحوث في أصول التفسير، المكتب الإسلامي، ط1، 1408هـ-1988م، ص176.

القصصي[1]، ومثال ذلك ما ذكره الله تعالى في سورة الأنبياء قال تعالى: **" وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ *"** [2].

فالقرآن الكريم لم يذكر الأمم السابقة التي ابتعدت عن الله سبحانه وتعالى وأفسدت في الأرض، ولم يفصل فيها فهو لم يسرد الواقعة بكاملها، وإنما اختار الجانب الذي يخدم الغرض الأسمى الذي يهدف إليه فساقها في قالب قصصي، فهذه الآية تبين لنا تنكر القوم إلى الوحي الإلهي وصدهم له، ظانين أن النعيم الذي يعيشون فيه يمثل قوتهم التي يصدون بها الحق الذي جاءهم من ربهم، فاستحقوا العذاب، فالله سبحانه وتعالى لم يتعرض إلى الجزئيات والتفصيلات عن هذه الأمم وإنما اختار ما يمس جوهر الموضوع، وموضوع العبرة والمتمثلة في أن الجانب المادي لا يتفوق على الجانب الروحي مهما بلغت ذروته، وأن الاهتمام بالماديات وإغفال القيم والمبادئ تؤدي إلى زوال الأمم واندثارها، وهذه سنة من سنن الله في خلقه، فالقصة في القرآن الكريم تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء الغرض، فالقرآن الكريم كان تاريخا لسير الدعوة الدينية في الحكاية وكيف خطت مجراها بين البشر منذ بدء الخليقة.

ويستخلص مما سبق أن القرآن الكريم لم يلتزم بقواعد تدوين التاريخ وعرضه، كذكر زمان الواقعة، ومكانها وترتيبها الزمني، وإنما صاغها في أسلوب متميز مؤثر يهدف إلى العبرة وهذا ما أشار إليه أحمد أمين يقول: "إن القرآن الكريم في إيراده لقصص الأنبياء يقتصر على مواضع العظة، ولا يتعرض لتفصيل الجزئيات، فهو لا يذكر –غالبا- تاريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان

(1) محمود السيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، ص68.
(2) الأنبياء: 11-15.

التي حصلت فيها، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث، وإنما يتخير ما يمس جوهر الموضوع، وموطن العبرة ومثال ذلك قصة آدم فقد وردت في القرآن الكريم في مواضع عديدة أطولها ما ورد في سورة البقرة، فالقرآن الكريم لم يتعرض لمكان الجنة، ولا نوع الشجرة التي نهى آدم عن الأكل منها، كما أنه لم يبين الحيوان الذي تقصمه الشيطان بخلاف التوراة والكتب التاريخية الأخرى فإنها تتعرض لكل ذلك وأكثر منه"[1].

والدليل على ذلك ما قصه علينا القرآن في سورة الكهف قصة أصحاب الكهف فبدأها بهذه الآيات: **"نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا"** [2].

فهذه الآيات تورد لنا قصة أصحاب الكهف على النحو الذي يفيدنا، والقدر الذي تتحقق فيه مصلحتنا من الاعتبار والعظة، فقد وصفهم الله بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان بالله عز وجل، مخالفين ما عليه سائرهم من عبادة الأصنام والطواغيت، ومن أجل ذلك عزموا على أن يعتزلوهم ويخرجوا من بينهم، ثم تمضي القصة على هذا المنوال، دون ذكر التفصيلات عن أصحاب الكهف، فلم يذكر القرآن من هم هؤلاء القوم؟، وفي أي بلدة كانوا يسكنون، وكم كان عددهم؟ وما هي أسماؤهم؟

فهذه الأسئلة كان من مقتضى السرد التاريخي أن تجيب عنها القصة التاريخية، ولكنها لو أوضحت ذلك وسارت في تتمتها على هذه الطريقة، فإنها لا توف بالغرض الذي سيقت من أجله،

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام،دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان ، ط8، 1976، ج1، ص332.
(2) الكهف، الآية: 13-15.

وتصرف فكر القارئ إلى تتبع الأحداث التاريخية ومعرفتها وبالتالي يغفل عن العبرة والعظة التي سيقت من أجلها[1]، لهذا فإن القرآن الكريم قد أتى بمجمل القصة دون أن يتتبع التفاصيل والجزئيات التي يهتم بها المفسرون والمؤرخون ويتوسعون فيها.

وما يمكن قوله: إن أسلوب القرآن الكريم في قصصه يختار الوقائع الحية التاريخية المؤثرة، والتي تحمل في ثناياها عبرة وموعظة أو سنة إلهية في أيام الأمم السابقة والخالية،ولا يثقلها بالتفاصيل والجزئيات التي لا مغزى منها، والتي تصرف الفكر والعقل عن التدبر والاعتبار.

فالقصص القرآني يركز في أغلبه على أحوال الأمم السابقة لا للتأريخ، بل ليقدمها إلى عقل الإنسان وضميره قصة واحدة تتجزأ وتتكرر بداياتها ونهاياتها ،ولكنها دائما قصة مستمرة نحس بتأثيرها في كل خطاب موجه لنا وفي كل ما يحدث لنا[2] .

ويتضح ذلك أيضا في قصة شعيب عليه السلام مع أهله في قوله تعالى: **"وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ* وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ"**[3].

فالقرآن الكريم لم يذكر لنا المعلومات التاريخية عن قوم مدين والمتمثلة في أصلهم ونسبهم، وموقعهم، وزمان وقوع الحادثة ومكانها، وترتيبها الزمني، لأن هذه المعلومات ليست من مقاصد القصص القرآني، لأن فرب الحادثة أو اعدها في الرمان والمكان لا يؤثر فيما تحمل في طياتها من عبر، تفيد كل مصلح يدعو إلى

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، 1416هـ1986م، ص197.

(2) محمد أحمد حمدون: القصة القرآنية، قراءة تأملية، مجلة المنهل، العدد 491، مج 53، ربيع الأول 1412هاكتوبر 1991، ص278.

(3) هود، الآية 83-84.

الحق والفضيلة كما أنها تهدف إلى تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، واستعلاؤه بالحق على كل قوى الباطل، وصده لأعداء الله، واستمراره على هذا النهج المستقيم.

فمجتمع مدين، مجتمع تسوده الوثنية بالإضافة إلى ذلك، أنه مجتمعا جشعا يستغل المال على حساب قوت الناس، بتنقيص الكيل والميزان، كما كانوا مفسدين في الأرض يقطعون الطريق على الناس، ويفتنون المؤمنين في دينهم، ويصدونهم عن سبيل الله، كما كانت تفعل قريش مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أول الدعوة الإسلامية، فقد كانوا يحاولون أن يصرفوا المؤمنين عن الإسلام بضروب الفتنة والتعذيب.

فأبعاد هذه القصة وظروفها تشبه ما كان يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم مع قومه، ومن بين الأهداف والغايات التي جاءت بها قصة مدين مع سيدنا شعيب عليه السلام ما يلي: النهي عن عبادة غير الله، الابتعاد عن الظلم باستغلال المال على حساب الآخرين، النهي عن العبث والفساد في الأرض .[1]

إن القرآن الكريم في كثير من الأحيان يكتفي بذكر حاشيتي القصة ويعرض عما عداه لسبب بسيط وهو أنه يقص للموعظة والعبرة ، ولا يؤرخ للأفراد والجماعات.[2]

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن الأحداث التاريخية في القصص القرآني ليست متصلة الحلقات في عملية السرد، لأن التاريخ لم يكن هدفه، ولكن لاستخلاص العبرة منه، ومن ثم أخضع القرآن الكريم في قصصه وقائع تاريخية إلى حقائق دينية[3]، فالقصص في القرآن لم يقصد بها تاريخ الرسل وأقوامهم وإنما المقصود بها ما في هذه القصص من دروس وعبر فيها هدى وعظة ولكل داع إلى الحق، وقد شهد بذلك الدكتور فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب فقال: "ويقصد القرآن من عرض هذه القصص

(1) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية للتوزيع، د.ط، 1974، ص184-187.

(2)ينظر : عبد الفتاح محمد محمد سلامة: المعايير الأدبية في القصة القرآنية، مجلة المنهل ،ص281.

(3) ينظر: المرجع السابق، ص176.

التوسل إلى عبرة أخلاقية، وما المقصد مجرد سرد حكاية بل بلوغ القارئ والسامع معا إلى مغزى سام أو عظة أدبية مثلى كأن يعلن للناس أن الله يجازي المستقيم على استقامته ويعاقب الشرير عل شره"[1].

ففي قوله تعلى :" **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ِ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**". [2]

فالقصص القرآني تخلى عن كثير من التفصيلات ، فلم يذكو لنا عن عاد شيئا قبل التكذيب وحتى عملية الإرسال نفسها قد تجاوزها ، فلم يذكر عن هود شيئا وهو الرسول الذي كذبه قومه، فقد ترك كل هذا وأسرع إلى وصف العذاب. وهنا صورة أدبية رائعة بألفاظ جزلة تهز العاطفة وتستثير الانفعال، وتأخذ مكانها من الأفئدة والألباب. [3]

وما يمكن قوله مما سبق أن القرآن الكريم ساق القصص التاريخي بالغرض الذي تؤدي به العبرة والعظة، كما أنه ساقها لأنها تحمل في طياتها سنن وقوانين يخضع لها البشر، وتلقي دروس تربوية في حياة أية أمة تريد النهوض والوصول إلى تحقيق الأهداف التي تصبو إليها.

ومن خصائص أسلوب القصص القرآني التاريخي التكرار لما له من مغزى كبير، وتأثير في النفوس، وهو أحسن الأساليب إقناعا وإمتاعا للعاطفة، وإقناعا للعقل، وترسيخا للعقيدة في النفوس، لهذا نجد القرآن الكريم غني بأسلوب التكرار الذي سيق من أجل تحقيق مقصد ومناسبة مقام وتوجيه نظر.

---

(1) عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، ص46.0

(2) القمر ، الآية18-21.

(3) عبد الفتاح محمد محمد سلامة: المعايير الأدبية في القصة القرآنية، مجلة المنهل، نفس العدد، ص280.

(3) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن 1974، ص184-187.

1- أسلوب التكرار:

لقد تكرر القصص التاريخي المتمثل في قصص الأنبياء الذي هو محور الشخصيات التاريخية وما جرى لهم مع أقوامهم وملوك قراهم، فكان لهذا التكرار هدف ومغزى وهو الدعوة إلى التوحيد، فنجد كل قصة قد تكررت في القرآن مرات عديدة، كقصة موسى، وإبراهيم، وقصة خلق آدم، بالإطناب أحيانا والإيجاز أحيانا، وذلك بحسب مناسبة الحالة المقصودة وبحسب المقامات.

فالتكرار الموجود في القرآن الكريم ليس هو التكرار بمعناه المعروف، وإنما الذي يحدث هو أن القرآن الكريم يتناول من القصة الواحدة في كل مرة جانبا معينا فيها، وهو الجانب الذي تستدعيه المناسبة، فالسياق هو الذي يحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع[1]، ولهذا نجد ذكرا لبعض القصة في موضع ونجد ذكرا لبعض آخر منها في موضع آخر، لأنه ما يذكر منها مناسب للسياق الذي سيقت له[2] وما يدل على ذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون فقد تعدد ذكرها في عدة مواطن من القرآن الكريم، ولكن بأساليب مختلفة، وعبارات متنوعة تجعل القارئ لا يحس عند قراءتها بالتكرار، وهذا ما أشار إليه محمد الغزالي فيقول: "ومعلوم أن القصة الواحدة قد تتكرر في عدة سور، غير أن هذا التكرار صوري، فإن كل قصة تختلف عن الأخرى إما في العناصر الجوهرية التي تتألف منها، أو في طريقة العرض الذي يناسب مقتضيات الأحوال"[3].

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، ص195-196.

(2) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص69 (المقدمة السابقة).

(3) محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، 1419هـ1999م، ص158.

فلما كان القصص القرآني يرد ليؤدي وظيفة يقتضيها المقام كإقامة الحجة والبرهان بأمثلة من وقائع التاريخ، نرى القصة الواحدة تتكرر في مواضع مختلفة بأسلوب وعرض يناسب المعنى الذي سيقت بصدده، فقصة موسى مع فرعون وردت عدة مرات في القرآن الكريم، وفي كل مرة تعرض بأسلوب وعرض مغاير مختلف عن سابقه، فقد وردت مفصلة في سورة الأعراف ضمن مجموعة من قصص الأنبياء لأنها جاءت في معرض تصوير طبيعة الكفر في نفوس البشر، وكيف يحاول الرسل إنقاذ البشر من الضلالة، كما بينت الصراع القائم بين الحق والباطل، فكل هذه المقاصد اقتضت نوعا من التفصيل والتبسيط، لهذا جاءت قصة موسى عليه السلام مفصلة وكانت تهدف إلى توحيد الله وترسيخ العقيدة في النفوس، كما جاءت رسالات الأنبياء الأخرى، بينما وردت القصة نفسها في سورة الذاريات في قوله تعالى: " **وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ* فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ** "[1] وقد وردت أيضا ضمن مجموعة من قصص الأنبياء إلا أنها بينت في هذه المرة، العذاب الذي ألحق بفرعون وجنوده دون أن تتعرض لتفاصيل القصة كما وردت في سورة الأعراف، فقد سيقت من أجل الغرض المحدد وهو تبيان سوء عاقبة المكذبين، وهذا هو موطن العبرة في القصة ومركز الاهتمام فيها[2]، وهذا ما نجده أيضا في سورة هود فإنها تعرض قصص الأنبياء والأمم الغابرة، ثم إذا قرأنا سورة القمر، ففيها أيضا عود إلى قصص الأنبياء وأقوامهم إلا أنها قد عرضت بأسلوب مغاير تمام لأسلوب سورة هود، يخيل لنا وكأننا أمام قصص وأخبار لم نكن نعلمها من قبل، تحمل من المعاني والعظات ما لم تحملها سورة هود[3]

(1) الذاريات، الآية 38-40.
(2) ينظر: التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص141.
(3) محمد سعيد رمضان البوطي :من روائع القرآن،ص196.

إن القصص القرآني التاريخي ليس فيه تكرار مطلق كما قد يتوهم لدى البعض، فإنها نعرض بحسب المناسبة و السياق ، دون تجاوز الوقائع التاريخية، وهذا من وجوه التمييز بين العرض الأدبي والعرض التاريخي المحض. (1)

فالقصة القرآنية التاريخية تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء الغرض الديني والمتمثل في العبرة والموعظة، فمرة تعرض مفصلة، ومرة مجملة، كما أنها تعرض تارة من أولها وتارة من وسطها، وتارة أخرى من آخرها، حسب ما تكمن العبرة في هذا الجانب أو ذاك وحسب المناسبة التي تستدعي ذلك.

فالتكرار في القصص القرآني له مغزى كبير لأنه يساق للعبر والعظات كما أنه سيق من أجل تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم أمام الكافرين، بشأن إعلان كلمة الحق.

إن التكرار لم يكن في القصة القرآنية بكاملها وإنما معظمه كان في بعض أجزائها، فمتى ذكر جانب من القصة في موطن، ذكر الجانب الآخر في موضع آخر متمما لها، أو يشير إلى فكرة جديدة أو توضيح هدف عام، أو سلوك معين(2)

فأسلوب القرآن الكريم أسلوب شائق ذو نعمة مثيرة ومؤثرة في عرض الأحداث والحقائق وحياة الأمم والأفراد وتاريخها المتمثلة في القصص التاريخي ،فهو يمثل التعبير الحقيقي والصادق لماهية القرآن الكريم. (3)

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن أسلوب القصص القرآني التاريخي يختلف تماما عن الأساليب المؤرخين والمؤلفين، لأنه لا يهدف إلى عرض الحوادث التاريخية فقط وإنما كان له غرض آخر أسمى وهو الهداية وتوحيد الله سبحانه وتعالى، فالقرآن الكريم

(1) ينظر : عدنان زرزور :القرآن ونصوصه ،مطبعة خالد بن الوليد،د.ط،1399 هـ1400هـ،1979م-1980م،ص144.

(2) ينظر :محمد دالي : الوحدة الفنية في القصة القرآنية،القاهرة ، ط1، 1414هـ1993م،ص119.

(3).عمر السلامي الإعجاز الفني في القرآن الكريم ،مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ،د.ط،1980،ص268.

في عرضه لقصص القرآني كان يهدف إلى أغراض دينية أكثر منها تاريخية.

المطلب الثاني: الصورة الفنية

الوحدة الفنية في القصة القرآنية ركيزة من ركائز الوسائل التعليمية لإثارة النفوس وجذبها للانتباه، فضلا عن إثارة الدافع للتعليم حتى تتهيأ نفس المتلقي للمتابعة والمشاهدة وأخذ العبرة من الصورة، ولهذا فإن إبداع الفن في القصة القرآنية رغم إيجازها، يبدو واضحا في وحدة موضوعها وطريقة عرضها للأحداث في مشاهد حية مثيرة، تهدف إلى العبرة والإتعاظ، ويتجلى ذلك واضحا في قصص الأنبياء والأمم السابقة، فقد امتازت بالصور البيانية القوية المؤثرة والتي تؤدى بها الأغراض ويكون وقعها في النفوس وإثارة العقول والأذهان، فهي تصور الشخصيات تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها، والعبارات تصور حالة الشخصيات من خوف وفزع وانزعاج، وكأن المعاني صورا واضحة في الشخص المتحدث عنه[1].

وهذا ما أشار إليه سيد قطب فيقول: "إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثا يقع ومشهدا يجري، لا قصة تروى، ولا حادثا قد مضى"[2].

فالصورة الفنية[3] من أبرز الخصائص الفنية في القصة القرآنية كغرض من أغراض التعبير في القرآن الكريم، فهي تتميز بمنهجها الفريد ونظمها الوحيد المتناسق، الذي لا يمكن لأي أحد من البشر تقليده، فهي تصور لنا المشهد وكأنه حاضر أمامنا في

(1) محمد أبو زهرة : المعجزة القرآنية، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت، ص187.
(2) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط8، 1403هـ1983م،ص190.
(3)هي طريقة خاصة من طرق التعبير ،أو وجه من أوجه الدلالة، الذي تحدث في المعنى ميزة ،وتكسبه طابعا تأثيريا في منهج أسلوبه عند تقديم العمل الأدبي، فهي لا تغير من طبيعة المعنى في ذاته ،بل تغير من طريقة عرضه وكيفية تقديمه.ينظر : جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1992، ص323.

أسلوب فني يفوق أساليب العرض الفني البشرية، ويتجلى ذلك واضحا في قوله تعالى: **" وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ *"** (1).

فهتان الآيتان قد رسمت لنا صورة لسفينة تغالب لجج الأمواج، وليس لها اتجاه تريده، واليابسة تغرق في الطوفان، وقد شبه القرآن اضطراب الأمواج بالجبال فصورت لنا مشهدا متميزا وكأنه مجسد أمامنا يتمثل في الأمواج الضخمة وحركة الركاب، كما صورت لنا الهيئة النفسية لركاب هذه السفينة وما كانوا يحسونه من فزع وخوف، ثم انتقلت بعد ذلك لترجمت عاطفة الأب سيدنا نوح نحو فلذة كبده، وحرصه الشديد على إنقاذه من الغرق والكفر، وهو أشد الناس إدراكا لحقيقة الهول، بالإضافة إلى صورة عناد الإبن وكفره وكيف كان موقفه من دعوة أبيه، فهو يرى النجاة من هذا الطوفان يكون في الاعتصام بالجبل، لا في الاعتصام برحمة الله.

فهاتان الآيتان رغم قلة ألفاظهما وإيجازهما إلاّ أنهما شخصتا لنا مشهد السفينة وهي تجري بين الأمواج كالجبال والطوفان يغمر اليابسة، ثم بينت لنا الحوار المؤثر الذي قام بين الأب الذي تفجرت في قلبه عاطفة الحنان، والابن العاق الذي أصر على إتباع الباطل والضلال فكان من المغرقين ثم بينت لنا أن أساس النجاة هو الإيمان بالله تعالى والاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وهكذا يتجلى الإبداع الفني الحاصل من طريقة القرآن في أداء المعاني، فهو يبرز الحالات النفسية في صورة حسية، وتصوير المشاهد الطبيعية بالتخيل المفعم بالحيوية والحركة لا مجرد وصفها بالألفاظ(2).

---

(1) هود، الآية: 42-43.

(2) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص502-505.

إن التصوير القرآني يتدرج في مظاهر متعددة، بوسائل مختلفة، والتي لاتغدو أن تكون إستعارة أو مجازا مرسلا أو تشبيها فكثيرا ما نجدها كلها مجتمعة في نص واحد، وقد تجد بعضها متفرقا في نصوص متعددة ومن مظاهر التصوير الفني ما يلي:

أ- إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والمتخيلة.

ب- تحويل الصور من شكل صامت إلى منظر متحرك حي

ج- تضخيم المنظر وتجسيمه حتى يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك[1].

فالتصوير الأول يتجلى في قوله تعالى: **"وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ"** [2].

فهذه الآية تصور التألم من إعراض الكافرين، في صورة شيء قد كبر حجمه ينوء الرسول صلى الله عليه وسلم تحت ثقله ويضيق ذرعا به، ثم صور الجهد الذي لن يأت منه بفائدة وإن هو أجهد نفسه به، بصورة من يريد أن يتخلص من كل عبء يثقل كاهله، فالآية أخرجت المعنى الفكري في مظهر شيء محسوس وبثت فيه الحركة والحياة، ثم جسمت الفكرة نفسها في الصورة الحية المتحركة، وخاطبت الخيال قبل أن تخاطب الفكر والذهن.

والتصوير الثاني يتضح من خلال قوله تعالى **"فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"**[3] فقد أخرج معنى التلاقي الذي يكون بين المسلمين وأعدائهم في صورة من الظل يتربص بشيء حتى ظفر به ووقع عليه وعبر عن ذلك بقوله تعالى "تثقفتهم" ثم أخرج معنى إلحاق الهزيمة، في صورة فريدة متمثلة في جند أقوياء انقضوا في هجوم صاعق على طلائع

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن الكريم، ص171.
(2) الأنعام، الآية :36.
(3) الأنفال، الآية: 58.

أعدائهم، فأخذهم الرعب والفزع، وتبعثروا في كل جهة قبل أن يصل إليهم السوء ويلامسهم، فقد أخرج المعنى من صورة صامتة إلى منظر حي متحرك يعم بالحركة الصاخبة، وتشخيص مرهف لكل ما يقع في هذه المعركة وما ينجم عنها من آثار.

والتصوير الثالث: يظهر من خلال وصف الله المنافقين بالجبن، وبين أن ما يتظاهرون به من الشجاعة كذب، وأن الرعب سرعان ما يستولي على قلوبهم فينهزمون، وقد عبر عن ذلك بقوله تعالى: **" لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ"** [1]، فهذه الآية تعرض لنا هزيمة الجبن في لوحة تصويرية رائعة، فقد أخرجت المعنى الفكري المتمثل في الجبن على شكل جماعات من الناس تائهة لا تعرف طريقها حينما يسيطر عليها الرعب، فهي تنقذف هنا وهناك بحثا عن المأمن في حركات عجيبة وغريبة، كما صورت لنا الأشكال المعينة لكل من الملجأ والمغارة والمدخل الذي يبحث عنه المنهزم، فيبدأ في أول مرة يبحث عن الملجأ المتمثل في دار أو جماعة من الناس يلجأ إليهم، ثم ينتقل في آخر المطاف المغارة الذي لا يرضه ولا يألفه إلا من اشتد خوفه وهو المأمن في باطن الأرض أو الجبل، ثم يصور لنا المدخل والمكان الضيق الذي لا يستطيع أحد أن يستخدمه إلا بجهد وعناء، وكلمة "مدخلا" تعرض الصورة وتجسمها في الحس وكأنها حادث أمامنا.

فقد صورت لنا هذه الآية الهزيمة والجبن الذي يلحق بالكافرين كما صورت لنا القلق النفسي حتى تتجسد الصورة في الخيال والواقع وكأنها صورة متحركة وشاخصة أمامنا[2].

فالحركة من الظواهر الفنية التي يمتاز بها التصوير الفني في القرآن الكريم، فأغلب الصور الفنية في القرآن، فيها حركة ظاهرة أو مضمرة وتتجلى ذلك في تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية، وفي السرد القصصي، فهي تحيل تلك المعاني الذهنية

(1) التوبة، الآية: 57.
(2) ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن الكريم، ص172-174.

والانفعالات النفسية إلى مشاهد حية متحركة، وكأنها أشخاص يتكلمون ويتحركون، وليست مجرد صور فنية مرسومة بالكلمات، يقول تعالى: **" هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ "** (1).

فالحركة هنا بارزة في المشهد المعروض، وكأنه واقع مشهود، وتتمثل في حركة السير في البر والبحر، وحركة السفن في البحار بقدرة الله، ثم حركة السفن البطيئة في دفع الريح الطيبة لها، وتصوير الريح بـ"الطيبة" يجسم مشاعر النفوس وأوضاع الركاب بأنهم في مأمن ولا أثر للخوف أو الرعب، ثم تصور حركة أخرى سريعة والمتمثلة في "الريح العاصف" وتخبط الأمواج الشديدة علوا وانخفاضا، تقابلها حركة أخرى في داخل النفوس تعلو وتهبط، متناسقة مع حركة الأمواج في علوها وهبوطها(2)، فهذه الآيات تصور لنا مشهدا وكأننا نشاهده ونعيشه فهو مشخص ومصور تصويرا لا مثيل له.

إن التصوير في مشاهد القصة ألوان: لون يبدو في قوة العرض والإحياء، ولون في تخييل العواطف والانفعالات، ولون في رسم الشخصيات، وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحد يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين، فيسمى باسمه، أما هذه الألوان فإنها تبدو في مشاهد القصص جميعا(3)، وسوف نتطرق إلى كل لون من هذه الألوان على التفصيل.

اللون الأول: قوة العرض والإحياء

وهي سمة بارزة من سمات التصوير في القصة القرآنية التاريخية، فما يكاد القارئ يطالع قصة من القصص القرآني، حتى

(1) يونس، الآية: 22.
(2) عبد السلام أحمد الراغب: الدراسات الأدبية النظرية والتطبيق، نصوص قرآنية، دار الرفاعي للنشر، دار القلم، سوريا، ط1، 1425هـ2005م، ص84-85.
(3) عدنان زرزور: القرآن ونصوصه، ص351.

ترتسم أمامه حوادث القصة ومشاهدها، عرضا فنيا متناسقا قويا، ويذهب بخياله مع المشاهد، وكأنها تعرض على خشبة المسرح، وهذا اللون يظهر في معظم القصص القرآني، وبشكل خاص في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، وقصة أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين في سورة الكهف، وكذلك في مشهد نوح وابنه في الطوفان في سورة هود وفي مشهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان الكعبة في سورة البقرة[1]، وسنذكر مثالا لهذا اللون من ألوان التصوير وهو قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في سورة البقرة.

عرضت القصة على شكل مشاهد حية متحركة تظهر فيها قوة العرض والإحياء، قال تعالى: " **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** " [2]، فهذه الآيات تصور مشهدا من قصة إبراهيم عليه السلام، والمتمثل في بناء الكعبة مع ابنه عليه السلام، فالقارئ حين تلاوته لهذه الآيات يرتسم أمامه مشهد البناء وكأنه يشاهدهما يبنيان ويدعوان الآن، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان، مع أن البناء والدعاء قد انتهى وحدث في زمن مضى إلاّ أن القرآن الكريم قد أثار ذلك المشهد وجعله في صورة مفعمة بالحركة، جعلته شاخصا ملء الأعين والأسماع.

فالانتقال من الخبر إلى الدعاء كان مجسدا في حركة هي التي أحيت المشهد وردته حاضرا، فالخبر تمثل في قوله: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل" فهنا إشارة إلى رفع الستار ليبدأ المشهد البيت، وإبراهيم وإسماعيل يدعوان هذا الدعاء

(1) صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب بالجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1988، ص233.
(2) البقرة، الآية: 126-128.

الطويل، فالانتقال من الحكاية إلى الدعاء فيه إعجاز فني بارز يجعل الحياة حاضرة شاخصة أمام القارئ، وهذا هو الفرق بين حكاية حياة سابقة، وبين حكاية حياة حاضرة ماثلة والتي أتى بها تصوير القرآن الكريم[1].

ما يمكن قوله أن الأحداث التاريخية والحكايات القصيرة الكاملة وما يتخللها من شخصيات، يتم تصويرها إجمالا أو تفصيلا في طابع مميز فريد يقوم على صور متداخلة ومترابطة مفهومة القصد والإيحاء[2].

اللون الثاني: تصوير العواطف والانفعالات

عندما تتلى آيات القرآن الكريم التي ترسم مشاهد قصة من القصص بحوادثها وشخصياتها وأبطالها، ترى هؤلاء البشر يتحركون، ويعيشون حياة شاخصة ملموسة بفضل قوة العرض والإيحاء، كما نرى العواطف المختلفة والمتمثلة في عاطفة الحب والكره، الشكر والبطر واضحة على ملامحهم، ونرى أيضا الانفعالات مرسومة على وجوههم كانفعالات الدهشة والحيرة، وانفعالات الغضب والرضى، وكل ذلك بفضل طريقة التصوير التي عرضت من خلالها القصة[3].

فتصوير العواطف والانفعالات واضح في معظم القصص القرآني وخصوصا قصص الأنبياء مع أممهم، فالعبارات القرآنية تصور العواطف والانفعالات تصويرا واضحا وكأنها بادية على وجه الشخص المتحدث، ويتجلى هذا اللون في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح كما وردت في سورة الكهف، وقصة مريم مع جبريل عليه السلام، وكذلك أم موسى في سورة القصص.

وسنشير إلى بعض العواطف المصورة في أم موسى قال تعالى: **"وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ**

(1) صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية، ط1، 1995، ص90.

(2) محمد أحمد حمدون: القصة القرآنية، قراءة تأملية، مجلة المنهل، ص270.

(3) صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص236.

فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ* فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ* وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ"[1].

فالقصة ترينا صورة أم مضطربة منزعجة خائفة من فرعون الذي كان يذبح الأبناء ويستحي النساء، فاضطرت إلى أن تلق ولدها في اليم، إلاّ أنها لم ترتاح فقد ظلت مضطربة، لأنها تريد نجاته، فبدا الخوف والاضطراب يعلوها، إلى أن أثلج الله قلبها بألا تخاف ولا تحزن وطمأنها بأنه سيعود إليها، فحل الاطمئنان مكان الخوف، والقرار في موطن الاضطراب، والسكون في موطن الهلع، وبالرغم من ذلك إلا أنها لم تستطيع أن تتحمل، فقد كانت في صراع بين الفزع والاطمئنان، فهي تغالب حال الفزع بحال الاطمئنان إلى أن وعدها الله بالإطمئنان، ويصطرع الأمران في نفسها، يغلب الإلهام فتطمئن، ويغلب الفزع القلبي فتكاد تبدي أمرها، وتظهر سرها ويعلم به فرعون، إلا أن الله تعالى ثبت قلبها بالصبر، وبالرغم من ذلك فأنها لم تستطع الصبر، وأرسلت أخته لتقصى أخباره، وتعرف أحواله، وتدلهم على امرأة ترضعه بعد أن امتنع عن جميع المراضع، فعادت به إلى أمه التي كانت تضطرب بين اليأس والرجاء، وبين الأمل الباسم والحرمان الدائم[2].

فالقرآن الكريم صور حال الأم الرءوم أبدع تصوير وكأننا نشاهده ونحسه وليس موقفا يقرأ ويسمع كيف لا؟ وهو القصص الحق.

---

(1) القصص، الآية: 6-11.
(2) محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، القرآن الكريم، ص194.

فقد صور لنا أمرا معنويا يتمثل في العواطف والانفعالات تصويرا ملموسا وهو حنان الأم وقلقها على ابنها، فقد رأينا في أم موسى عليه السلام عاطفة الأم تعلو وتحاول التشبث بانبهار رغم الخوف الذي كان سيلحقها من فرعون والمتمثل في قتل ابنها، لولا معجزة الله الكبرى والتي تمثلت في إلقائه في اليم وتربيته في قصر فرعون واسترجاعه لأمه، هكذا نجد القرآن الكريم يرسم لنا الانفعالات والعواطف بارزة وواضحة وشاخصة على ملامح الأشخاص الذين تدور حولهم القصة.

اللون الثالث: رسم الشخصيات

يعني القصص القرآني برسم الشخصيات كل العناية، فهي مرسومة رسما فنيا متناسقا، بفضل طريقة التصوير التي عرضت من خلالها القصة، فهو يحدد عدد الشخصيات تبعا لنوع القصة، كما يضعهم في مستواهم الطبيعي حسب أدوارهم وأوضاعهم الاجتماعية، فتظهر الشخصيات شاخصة مجسمة بشكل بارز يتجاوب معها القارئ تجاوبا ينسيه أنه يقرأ، ويجعله يعيش فيها كأنه يرى ويسمع، فهي شخصيات حية متحركة واضحة الملامح، بارزة السمات تظهر عليها شتى العواطف والانفعالات، وتبرز من خلالها نماذج إنسانية مختلفة[1].

والشخصيات في القرآن الكريم متنوعة فهي تشمل الرجال والنساء، والرجال إما أنبياء وإما ملوك ووزراء مثل فرعون وهامان، وإما أشخاص عاديون وهم كثيرون[2].

ومن بين هذه الشخصيات شخصية موسى عليه السلام، لقد صوره القرآن في قصته مثالا للشخصية المندفعة العصبية المزاج، وهذا يتضح من قوله تعالى: **"وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى**

(1) ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص238.
(2) عبد السلام أحمد الراغب: الدراسة الأدبية النظرية والتطبيق نصوص قرآنية، ص92.

فَقَضَى عَلَيْهِ"[1]، فهنا يبدو الانفعال العصبي واضحا والمتمثل في القضاء على الرجل الذي من عدوه، إلاّ أنه سرعان ما يذهب عنه الغضب ويزول أثر الانفعال شأن العصبين ويبدو ذلك من خلال قوله تعالى: **" قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ"**[2]، وهذا تعبير مصور لهيئة معروفة، هيئة المتوقع للشر في كل حركة وكل لحظة، وتلك سمة العصبين[3] أيضا، فالقرآن الكريم يرسم الشخصيات رسما فنيا متناسقا من أجل تمييز النماذج الإنسانية المختلفة وأخذ العبرة والعظة منها.

وقد رسم القرآن الكريم شخصية إبراهيم عليه السلام بمعالم وسمات بارزة تتمثل في الحلم والهدوء والتسامح، وقوة المنطق والحجة ويتجلى ذلك في أسلوب دعوته لقومه وحواره مع أبيه، وطريقة خطابه لقومه بعد تحطيم الأصنام[4].

فالقرآن الكريم صور لنا شخصية إبراهيم عليه السلام المتمثلة في الشخصية الهادئة والمتسامحة، فقد تحركت فيه عاطفة البنوة نحو أبيه، فاهتم بأمره وحرص على هدايته إلى الطريق المستقيم إلا أن عناد الأب وكفره كان سببا في التفريق بين الأب وابنه.

كان إبراهيم عليه السلام في كل مرة يدعو أبيه، وفي كل دعوة تصدر منه إلى أبيه يصدرها بقوله (يا أبت) إنه نداء رقيق حبيب تظلله الرحمة ويغمره الحنان، وفي مقابل ذلك النداء كان الأب الضليل يرد عليه دون أن يقول يا ابني أو يا ولدي، ويتجلى ذلك من خلال قوله تعالى: **"قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ**

(1) القصص، الآية: 14.
(2) القصص، الآية: 14-17.
(3) صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ص100-101.
(4) عبد السلام أحمد الراغب: الدراسة الأدبية النظرية والتطبيق، ص94.

لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا* قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا" [1] ومع عنف الأب فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لا يفقد أدبه الجم، ورد عليه ردا رحيما وأوعد أن يستغفر له ربه[2].

من خلال الحوار الذي قام بين سيدنا إبراهيم وأبيه يبدو لنا أن شخصيته كانت لها سمات خاصة وهي الهدوء والتسامح، والبر بوالده رغم ما لاقه منه إلا أنه كان دائما يقدره ويحترمه ويحاوره باحترام دون انفعال أو تعصب.

وتتجلى أيضا شخصيته من خلال حواره مع الملك الذي حاجه في ربه، فقد حاوره بأسلوب هادئ، وألفاظ صريحة جازمة قطع بها حجته، وانتصر عليه وكذلك عندما رأى في المنام أنه يذبح ولده، فقد أراد أن ينفذ أمر ربه طائعا ومسلما هادئا دون أن يرتابه أي خوف أو فزع لولا أن فداه الله بكبش عظيم، وهكذا فقد ظهرت صفة الحلم والتسامح والهدوء في سيدنا إبراهيم وتمثلت فيه وأصبح نموذجا إنسانيا لها.

فالألوان الثلاثة التي ذكرها سيد قطب هي التي تعطي للصورة الفنية الحياة الشاخصة فتصبح صورة حية تتحرك كالأحياء، وهذه الحياة نراها على جميع ألوان القصص القرآني، سواء في تصوير الانفعالات، أو الحوادث والشخصيات أو الصور الحسية للمعاني الذهنية والحالات النفسية، وكل هذه الألوان تساق للغرض الديني، فهي تتنوع في طريقة العرض بما يتناسب مع السياق العام للآيات، والغرض الذي سيقت من أجله.

ولهذا نجد أن الموضوع الواحد ذو المعنى المتحد والمشترك، فهو في عرضه متفرق في أماكن عدة في القرآن الكريم، بالرغم من تباعد أوقات نزوله، وتباين أزمانه، فإننا لا نجد بين آياته مفارقة ولا تناقض، بل يشكل وحدة واحدة مترابطة ومتناسقة تكون

(1) مريم، الآية: 46-48.
(2) محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص28.

لنا صورة واحدة، في أحسن تقويم وتعطينا منظرا متآلفا في أبدع تنظيم وأروع تنسيق، فهي تصور لنا كائنا متناسق الأعضاء مترابط الأجزاء ومتكامل البناء، فكل جزء يكمل بعضه البعض، ويستدعي الآخر وكل لفظ يقع من الثاني موقعه، وبالجملة فالقرآن العظيم في عرضه لموضوعاته فريد من نوعه[1].

فالقصص التاريخي يعتمد على سرد وقائع الحادثة فعلا بصورة قوية مؤثرة تؤدي الغرض منها في سبيل الدعوى ويعرضها عرضا مؤثرا ويسوقها سوقا عاطفيا يبين المعاني ويؤدي الأغراض[2].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن العرض التاريخي في القرآن يمتاز تقريبا بنفس المقومات التي تمتاز بها القصة القرآنية، فقد عرض القرآن للوقائع التاريخية عرضا أدبيا يتماشى مع الغرض الديني الذي يهدف إليه، فالقصة القرآنية التاريخية كغيرها من القصص القرآني تمتاز بالإيجاز أحيانا والتفصيل وغنية بالألوان التصويرية التي تدب الحركة في القصة وتجعلها حية شاخصة، والتكرار الذي لا يخل بالمعنى ولا يوقعها في تناقض. كما أنها سيقت حسب المقام، وحسب الغرض الذي تهدف إليه فقد كان معظم القصص القرآني التاريخي يساق لترسيخ العقائد الإسلامية، وتقرير أن كل ما يحدث في هذا الوجود مرده إلى الله تعالى.

هذا عن السمات الفنية التي امتاز بها العرض التاريخي، أما خصائصه، فقد وردت في القرآن الكريم جملة منها كما أنها كانت محل نزاع بين الأدباء والدارسين المعاصرين، هذا ما سنحاول التطرق إليه في المبحث الموالي.

---

(1) أحمد جمال العمري: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1406هـ1986م، ص9.

(2) عبد الفتاح محمد محمد سلام: المعايير الأدبية في القصة القرآنية، ص281.

المبحث الثاني: خصائص العرض التاريخي في القرآن الكريم

طالما لفت القرآن الكريم نظر الإنسان، ونبه عقله إلى ضرورة استقراء التاريخ من أجل كشف السنن وتلقي الدروس العلمية لقوله تعالى " **لَقَدْ كَانَ فِي قصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**"[1].

فالتاريخ هو ذاكرة الأمة، ومستودع تجاربها، فالأمة التي تهمل تاريخها أشبه بالفرد الذي يفقد ذاكرته ،ويعيش يومه وحده بلا ماض يعرفه ويبني عليه ،لهذا يقول أحمد شوقي في قصيدته :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عي في الحي انتسابا[2]

أو كمغلوب على ذاكرةيشتكي من صلة الماضي إنقضابا

فهذه حقيقة يقررها الشاعر عن الأمة التي فقدت تاريخها أشبه بالفرد الذي يفقد ذاكرته، فتصبح بدون مهاد يبني عليه، ولا تقاليد تنبعث منها ولا تراث تستمد منه لبناء صرحها الحضاري.

لهذا يعتبر التاريخ من أهم الدروس التربوية في حياة أية أمة تريد النهوض والوصول إلى تحقيق جميع الأهداف التي تصبوا إليها، من أجل ذلك نجد القرآن الكريم قد ساق لنا العديد من القصص القرآني التاريخي الذي يمثل الأساس في التربية والتوجيه، وقد ساقها في عرض متميز منفرد عن باقي القصص العادي، وكان لهذا العرض خصائص فريدة من نوعها جعلته يتسم

---

(1) يوسف، الآية: 111.

(2) محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، د.ط، د.ت، ص122.

بها دون غيره من العروض الموجودة في كتب التاريخ وغيرها من الكتب، فما هي هذه الخصائص؟

المطلب الأول: صحة الحدث التاريخي

لا بد من دراسة الماضي والتعمق في أحداثه، فإن هذه الأحداث ليست ملكا لأصحابها، وإنما هي ملك للإنسانية جميعا يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر ويستخلصوا منها النتائج ويضعونها نصب أعينهم وهم يخططون للحاضر والمستقبل على السواء.

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغني عنها ذولب قال تعالى: **" كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا"**[1] وقد لام سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين لقوله تعالى **"تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ"** [2].

فالقصص القرآني التاريخي تضمن العديد من السنن الكونية التي لا تحابى أحدا وكذلك السنن التاريخية والحضارية المنطبقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء، فهو سرد واع موجه للتاريخ الإنساني ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق، بل الغرض منه التربية والتوعية[3].

وقد اتهم القرآن بأنه يجمع أخبارا غير مطابقة للتاريخ، وأن الفن القصصي في القرآن يقوم على التلفيق والاختراع والخيال، ولذلك فإن القصص القرآني لا يتصف بالصدق التاريخي ومن بين الذين اتهموا القرآن بهذه التهمة محمد خلف الله فهو يقول:" أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ إلا في النادر الذي

---

(1) طه، الآية: 99.
(2) الأعراف، الآية: 101.
(3) محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، ما أهمية القصص في القرآن، وهل لها أصل تاريخي، وما لحكمة في تكرارها، ص157.

لا حكم له، وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان"[1] وكذلك بخصوص ما ورد في القصص من إشارات تاريخية يرى أن القرآن لم يقصد بها وجه التاريخ، وإنما جعلها مادة أدبية في بناء القصة القرآنية، ويعلل ذلك بقوله: "هي إشارات قد قصد القرآن إلى إبهامها أو إلى إبهام مقوماتها التاريخية، وقصد القرآن إلى ذلك إنما يفسر بحالة من حالتين: يفسر بأن القرآن قد أبهم هذه المقومات لأن المعاصرين للنبي -عليه السلام- ولنزول القرآن كانوا يعرفون ما وراء هذا الإبهام من ثقافة تاريخية، كما يفسر بأن القرآن قد عمد إلى تنحية التاريخ عن ميدان القصة القرآنية، ليتجه العقل البشري منذ اللحظة الأولى إلى ما هو المقصود من أقاصيص القرآن من عظة وعبرة وإرشاد وهداية ومن إنذار وبشارة..." [2]، فهو يدعي أن القصة القرآنية لا تلتزم الصدق التاريخي وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويرا فنيا، كما يزعم أن القرآن يختلق بعض القصص، وأن الأقدمين أخطأوا في عد القصص القرآني تاريخا يعتمد عليه[3].

ومن الحجج التي اعتمد عليها محمد أحمد خلف الله ليستدل بها على عدم صدق القصص القرآني، مخالفة ما جاء في ذلك القصص من وقائع وأخبار للحقائق التاريخية لأنه يرى أن التحقيق التاريخي قد يثبت وقائع حدثت تخالف الوقائع التي وردت في القرآن، وليس على العقل البشري أن يسلم بصحة هذه الأخبار[4]، بل لا بد عليه أن يهملها أو يجهلها أو ينكرها، وأن ما جاء به القرآن من قصص عاد وثمود ونوح، إنما كان من القصص الشعبي السائد الذي كان الناس يتداولونه في أسمارهم ونواديهم

(1) محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، 1957، ص7.

(2) المرجع نفسه، ص29.

(3) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط35، 1418هـ-1998م، ص282.

(4) عودة الله منيع القيسي: صحة الحدث التاريخي في القصص القرآني، مجلة المنار الإسلامي، العدد الثامن، السنة الثامنة، شعبان 1403هـ مايو 1983م، ص102.

ومحاوراتهم، كما أنه يزعم أن القصص القرآني لا ينبغي أن نفهمه على أنه حقائق ثابتة قصد القرآن إلى تقريرها وإنما هي أنماط من الخيال الخصب والفن المديح الذي تعارف عليه الناس في عصر نزول القرآن، وزعم أن القرآن أساطير الأولين، أو جاءت تحكي ما عرفه السابقون[1].

أما الحجة الثانية تتمثل في إسناد بعض الأحداث لأناس بأعينهم في مواطن ثم يسند الأحداث نفسها لغير الأشخاص في موضع آخر، وينطق الشخص الواجد في الموقف الواحد بعبارات مختلفة حتى يكرر القصة بالإضافة إلى إهمال القرآن الكريم بمقومات التاريخ من زمان ومكان، مما يجعل القصص القرآني مخالفا تماما للحقائق التاريخية[2].

ومن ثم فإن خلف الله يقر بوجود الأسطورة وما فيها من حوادث ملفقة، ويستدل على ذلك بأن المشركين في مكة اتهموا القرآن في آيات كثيرة بأنه أساطير الأولين، وأن القرآن لم ينف ذلك عن نفسه، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد –عليه الصلاة والسلام- وليس من عند الله[3].

أما الحجة الثالثة التي يستدل بها على عدم تاريخية القصص القرآني وأنها لا تتلاءم مع الواقع ولا تتفق مع الحقيقة تتمثل في التكرار، إذ يتساءل دائما في تعجب عن سر هذا التكرار متهما العقل الإسلامي بالعجز عن فهم أسراره[4].

إلا أن هذا الرأي قد لقي العديد من الاعتراضات فندت قوله ونفت وجود القصة الأسطورية في القرآن الكريم، فهناك من الدارسين من يعتبر هذا الرأي خطيرا، لأنه لم يكن من ابتكار محمد أحمد خلف الله، وإنما هو متأثر في هذا الرأي ببعض المستشرقين الذين يزعمون أن القرآن من إنشاء محمد وصنعه،

(1) فضل حسن عباس: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، شركة الشهاب، الجزائر، ص428.
(2) لخضر العرابي: أغراض القصص القرآني عند سيد قطب، ص247.
(3) لخضر العرابي:المرجع نفسه، ص249.
(4) محمد أحمد خلف الله، الفن القصص في القرآن، ص32.

جمع مادته وأخباره مما كان معروفا في الحياة من حوله، ومما كان يدور على ألسنة الأحبار والرهبان هذه أعدل أراءهم في القرآن الكريم[1].

وقد أكد عبد الكريم الخطيب بأن خلف الله لم يكن مبتكرا لهذا الرأي، وإنما كان تابعا للمستشرقين من أمثال بلاشير الذي يعتبر: "أن قصص القرآن عن نوح ولوط وموسى وهود وصالح وشعيب في نظر المشركين قصص يعود إلى منشأ دودي لا أكثر"، وكذلك جولد تسهير الذي يعتبر هو الآخر أن "ماكان يبشر به محمد خالصا بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقينا، وأقام عليها هذا التبشير، أفاد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء.." [2]، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلتزم بالصدق التاريخي في القصة، وإنما أخذ مقالات المستشرقين ووضع في قالب آخر[3].

إلا أن المادة القصصية في مجموعها نجدها تشكل النسيج الأساسي للأسلوب القرآن، تعرض فوقه وخلاله مجموعة من العلاقات التاريخية والقيم الإنسانية المتكاملة والأحكام الشرعية، وهي بهذه الصفة تخرج عن كونها عملا فنيا يقوم على الخرافة[4].

أما فيما يخص القصص القرآني أنه مطابق في أخباره لما عند اليهود والنصارى من أخبار وأساطير، فالحقيقة غير ذلك فقد أجرى مالك بن نبي مقارنة بين قصة يوسف في القرآن والكتاب المقدس نفى من خلالها وجود أي تأثير يهودي مسيحي في الوسط الجاهلي، وأن الآية في قوله تعالى: " **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**" [5]، وقوله تعالى: **"ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا**

(1) لخضر العرابي: أغراض القصص القرآني عند سيد قطب، ص251.
(2) المرجع نفسه، ص252-253.
(3) فضل حسن عباس: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص429.
(4) محمد أحمد حمدون: القصة القرآنية، قراءة تأملية، ص27.
(5) يوسف، الآية: 3.

كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ" [1]. تؤكدان على خلو البيئة العربية من أي تاريخ توحيدي.

ويرى مالك بن نبي أيضا أن القرآن نفسه يؤكد مرات كثيرة أن لا وجود لأي تأثير ديني في العصر الجاهلي، وهذا الرأي الذي يذهب إليه ينفي نفيا قاطعا وجود أفكار دينية ذائعة في البيئة العربية في العصر الجاهلي[2].

أما تعليق القصص القرآني بأخبار التاريخ والحكم على صحتها، فإنه لا يقبل ذلك أصلا بأي حال من الأحوال، لأن "القصص القرآني كله عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن... فهو والأمر كذلك وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق، فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة"[3].

إن ما ورد في القرآن من القصص التزم أحداث التاريخ كما حدثت، ولم يكن من تصرف إلا في التشكيل الأدبي ليناسب الغرض، فالقرآن الكريم لم يذكر حادثا أو خبرا لم يقع، وحتى إذا تعارض علم التاريخ مع ما ورد في القرآن، فما ورد في القرآن كان الحق، وما خالفه من التاريخ كان الباطل، لأن التاريخ علم ظني والقرآن علم يقيني[4].

فقد أجمع الباحثين على أن القرآن هو أول وثيقة في هذا الصدد، وما من باحث يدرس أحوال الجزيرة العربية في صدر الإسلام إلا ويضع القرآن أول مستند لدراسته وجمع معلوماته، مهما كانت عقيدة هذا الباحث في مصدر القرآن وجوهره.

لقد دلّ التاريخ بعمومه والسيرة النبوية بخصوصها، على أن ما جاء به القرآن من أخبار الأمم البائدة كان شيئا يجهله العرب جهلا تاما، وإنما كان يعلم بعضا منه أهل الكتاب الذين درسوا

---

(1) يوسف، الآية: 101.

(2) ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، د.ط، د.ت، ص245-246.

(3) لخضر العرابي: أغراض القصص القرآني عند سيد قطب، ص256.

(4) عودة الله منيع القيسي: صحة الحدث التاريخي في القصص القرآني، ص102.

الإنجيل والتوراة[1]، فالسنة خير شاهد على الدقة والصدق الذين يأمر بهما الإسلام، لأن القرآن الكريم جاء يصحح كثيرا من الأخطاء التي كانت شائعة منتشرة عند نزوله[2].

ويؤكد هذا المعنى صاحب تفسير المنار فيقول: "وإذا ورد في كتب الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق، وخبره هو الصادق، وما خالفه هو الباطل وناقله مخطئ أو كاذب فلا نعده شبهة على القرآن ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه"[3].

فكيف يعقل أن يحاكم القصص القرآني إلى التاريخ ويحكم على أخباره بالصدق إذا وافقت ما جاء في كتب التاريخ، وبالكذب إذا ما خالفت أخبار التاريخ، فالقرآن ليس كتاب تاريخ إلا أن الأحداث التاريخية التي تضمنتها قصصه إن هي إلاّ وقائع تاريخية ثابتة لا ريب فيها، ويستحيل ألا يتفق معها التاريخ الصادق الذي كتبه الثقات[4]. فالصدق التاريخي معيار حرص القرآن الكريم على إثباته وتأكيده المرة تلو الأخرى في الكثير من آياته[5].

وهذا ما أشار إليه سيد قطب رحمه الله "فإذا نحن جردنا القرآن من قداسة دينية ثم ننظر إليه كمصدر تاريخي بحت، نجد أننا لا نملك كتابا آخرا يكون أقوى إسنادا من الوجهة العلمية البحتة، ومن كل مرجع تاريخي آخر في الوجود.."، فالتحقيق العلمي لم يتهيأ لكتاب آخر لا من الكتب المقدسة ولا من الكتب التاريخية، فالكتب المقدسة الأخرى قد انقضت فترات طويلة بين حياة أصحابها وعصر تدوينها، ولم ترو بالإسناد الذي روي به القرآن، والكتب التاريخية والآثار لا ترتفع فوق مستوى الشبهات،

(1) محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن الكريم، ص207.
(2) فصل حسين عباس: القصص القرآني، إيحائه ونفحاته، ص431.
(3) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج2، ص471-472.
(4) لخضر العرابي: أغراض القصص القرآني عند سيد قطب، ص256.
(5) سليمان عشراتي: الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1983، ص67.

وليست هناك حادثة تاريخية واحدة في تاريخ البشرية تعد يقينية يقينا علميا خالصا[1].

فالقرآن الكريم هو أول وثيقة في جمع المعلومات عن التاريخ، وهذا ما أشار إليه محمد سعيد رمضان البوطي فيقول: "سل جميع مؤرخي الشرق والغرب عن أول مصدر يعتمدون عليه فيما لهم عن معلومات يجيبوك إنه الكتب المقدسة أفت تكون هذه الكتب مصدرا تاريخيا علميا نزيها ثم لا يكون القرآن واحدا من هذه المصادر على الأقل؟ ! [2]

فلا يجوز محاكمة القرآن الكريم إلى أي كتاب تاريخي آخر ليس له من قوة الثبوت ما للقرآن الكريم، وأي خلاف يقع في حادثة وردت في القرآن وبين ما كتبه عنها البشر، فإن الخطأ في جانب البشر لا محالة، فمن غير الممكن أن يكون ما كتبه البشر مصدرا تاريخيا نزيها عن القرآن الكريم، الذي هو أصدق كتاب وأصح من الناحية التاريخية، لأنه وصل إلينا بالتواتر المنقول عن طريق الرواية الشفاهية والكتابية من جيل إلى جيل.

المطلب الثاني: البعد الواقعي للعرض التاريخي

إن كل ما ورد في القرآن من قصص لا يحيد عن الحق، لأنه بني على الحقائق الثابتة، ولا يتجافى الصدق، لأنه لم يكن للخيال أو الوهم أو المبالغة مدخل إليه، فقد اتجه قصص القرآن نحو ماضي الإنسانية للكشف عن الحقائق من وراء الأحداث التاريخية واستخلاص منها سنن الله في قيام الأمم وسقوطها، وفي النعمة والنقمة.

فالتاريخ مصدر من مصادر المعرفة في القصص القرآني، وذلك بما يكشف عنه بعض أحداث هذا القصص من نتائج تتجلى فيها نهاية الصراع بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر[3].

---

(1) سيد قطب: تصير الفني في القرآن، ص256-257.
(2) محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن الكريم، ص207.
(3) التهامي فقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص271.

إلا أن القرآن الكريم لم يعرض الأحداث التاريخية في القصص القرآني متصلة الحلقات في السرد، لأن التاريخ فيه لم يقصد لذاته، ولكن لاستخلاص العبرة منه، فقد أخضع القرآن في قصصه وقائع التاريخ إلى حقائق دينية وقد ربط بين الدين وأحداث التاريخ لتقرير حقيقة واحدة وهي أن تلك الأحداث وإن ارتبطت بقوانين أخرى غير دينية فإنها ترجع كلها إلى السب الأول للوجود وهو الله تعالى، فالمستعرض لقصص القرآن يجده لا يتبع دائما الخط التاريخي حين يعرض لمجرى الحياة البشرية، لأن القرآن أنزل بغرض إنشاء عقيدة وتصور وقيم وموازين وأوضاع مغايرة لما هو كائن في دنيا الناس من رواسب الجاهلية، ومن ثم فهو يعرض الحياة البشرية في صورة معركة مع هذه الجاهلية في مشاهد ومواقف تتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي، فهو لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة ولا يقرر حقيقة إلا ليغر بها باطلا، فهو لا يقرر حقائقه لمجرد النظر فقط أو المتاع الفني، بل يعرضها لما تحتويه من وقائع حية مجسدة في الوسط الذي نعيش فيه[1].

وانطلاقا من كون التاريخ في قصص القرآن لم يكن مقصودا لذاته، فإن لم يلتزم فيما انتقى من أخبار قواعد تدوينه وعرضه كزمان الواقعة ومكانها فقد صاغها في أسلوب إنشائي متميز، وبالرغم من ذلك فإنه تضمنه دلالات خطابها بصورة عامة، فعلمية الأسماء مثل يوسف، يعقوب، فرعون، مصر، تحمل إيعازا زمنيا ومكانيا يتحدد به إطار القصة التاريخي والجغرافي في أبعاده الحضارية والسياسية المختلفة[2]، كما أنه لم يخرج عن المألوف أو سنة الحياة التي يحياها الناس في رواية أخبار الأمم السابقة، فالمعيار الأول والأخير الذي ساقه القرآن الكريم هو الصدق في الرواية، والأمانة في النقل والدقة في التصوير والتعبير[3]، ولن

(1) ينظر: دراسات في الحضارة الإسلامية، أحمد إبراهيم الشريف، ص154.
(2) سليمان عشراتي: الخطاب القرآني ، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ص106.
(3) محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ص155.

يكـون ذلك إلا في القرآن الكريم لقوله تعالى " **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً** "[1].

فالقصص التاريخي أخبار واقعية ذات منحنى واقعي إنساني نزلت لتشد أذهان الناس في كل عصر إلى أحداث ووقائع عاشها أنبياء آخرون بذات القساوة وذات النضال اللذين عاشهما الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه[2].

وهذا ما نجده في القرآن الكريم، فقد عنى بالتاريخ عناية كبرى بأن وضع لنا قاعدة من أهم قواعد النقد التاريخي في رواية ما يكون مادة التاريخ: وهي التي تقرر أن ثقة الراوي عامل هام في الحكم على الأخبار المنقولة، وعلى المرويات[3]. قال تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**" [4].

وهذه الخاصية هي التي ميزت العرض التاريخي في القرآن الكريم عن سائر العروض الموجودة في الكتب الأخرى.

فالقرآن الكريم لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ لإثارة الانفعالات، واستغلال الأحداث التاريخية في التربية والمعالجة لهذا نجده يهمل ذكر الأسماء، ومكان وزمان حدوث الواقعة، لأنه لم يكن التاريخ هدفه وإنما ساقه من أجل أخذ العبرة منه والتدبر فيه، فلو أجاب القرآن الكريم عن أسئلة حول القصة التي ذكرها، فإن تلك الإجابات ستبعد القارئ عن العبرة والعظمة التي سيقت من أجلها القصة، ويقع أسر الأحداث التاريخية.

فمن بين خصائص القصص التاريخي في القرآن الكريم، العرض التاريخي السريع للدعوة الواحدة في تاريخ البشر، وإثبات الأصل من الكتب السماوية التي حرفها اليهود، الذين حدثهم هذا

(1) النساء، الآية: 122.
(2) سلميان عشراتي: الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد والإعجاز، ص67.
(3) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص219.
(4) الحجرات، الآية: 6.

القصص في إجمال سريع[1]. وتقرير الحقائق الخالصة، وتبيان حقيقة الدين وإعطاء نظرة تاريخية عن الرسل والرسالات، وكيف كان استقبال البشرية لكل دعوة جديدة.

ومما سبق يتبين لنا أن القرآن ليس كتاب تاريخ أو قصص، وإنما هو كتاب هداية وموعظة، وما جاء فيه من قصص لم يكن بغرض بيان تاريخ حدوثها، أو الإحاطة بتفصيلها، وإنما من أجل العبرة والعظة، إلا أننا نجد القرآن الكريم يتعرض في بعض الأحيان إلى الإسهاب في بعض الحوادث التي جرت للرسل عليهم السلام مع أممهم، وهذا واضح في قصة أصحاب الكهف، فقد بدأها بملخص ثم أتبعها بتفسيرات تمثلت في تشاورهم قبل دخولهم الكهف، وحالتهم بعد دخوله ونومهم، وبناء المعبد عليهم، واختلاف القوم في أمرهم...إلخ، فكل هذه التفاصيل التي ذكرها القرآن الكريم يقوم التاريخ بذكرها، مما يؤكد على أن القصص التاريخ له بعده الواقعي، وقد أثبت الدراسات التاريخية كثيرا من الوقائع التي أشار إليها القرآن الكريم بشأن قصص إبراهيم عليه السلام كالمعبودات التي كانت في عصره[2].

وقصد الإخبار يبدوا واضحا في مثل هذه القصص، كما هو الشأن بالنسبة لسورة هود، إذ يتبع القصص في هذه السورة كما يقول سيد قطب "خط سير التاريخ، فيبدأ بنوح، ثم هود، ثم صالح ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط، ثم شعيب، ثم إشارة إلى موسى... ويشير إلى الحظ التاريخي، لأنه يذكر التاليين بمصير السالفين على التوالي بهذا الترتيب..." [3].

وكذلك يرى أن العرض التاريخي المتسلسل في سورة الأعراف كان مقصودا بهدف عرض "خط وراثة الأرض، وتتابع الرسل من عهد آدم عليه السلام، فمضى القصص فيها يتبع خط التاريخ منذ الهبوط من الجنة، وبدء الحياة البشرية"[4]. بغرض

(1) لخضر العرابي: أغراض القصص القرآني عند سيد قطب، ص287.
(2) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص225.
(3) سيد قطب: في ظلال القرآن، م4، ص1870.
(4) المصدر نفسه، م5، ص2600.

إدراك حقيقة التصور الإسلامي لمجرى التاريخ، فالقرآن الكريم صدر عن وقائع تاريخية تتمحور حول شخصيات أنبياء الله ورسلهم ودعوتهم إلى أقوامهم، فجاءت تلك القصص واقعية الروح معقولة العبر جلية المرام[1].

فالقصص التاريخ في القرآن وإن لم يكن عرضا تاريخيا بالمعنى المعروف فهو حجة لا تقبل الطعن في إثبات ما قص من وقائع تاريخية، كما أن فيه إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته، وعلى الدارس لقصصه أن لا يختصر على معرفة الوقائع، يل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها، ومن هنا كان القصص التاريخي أشد تأثيرا وأسمى طموحا من التاريخ لأن يمد الإنسان بسلاح الإيمان والثبات، ويعرفه على سنن الله في هذا الوجود[2].

وفي الأخير ما يسعني أن أقول أن معظم القصص التاريخي الذي أورده القرآن الكريم، كان من أجل تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى التأسي، ولهذا نجده يعرض القصص حسب المناسبة وحسب ما يقتضيه المقام بالقدر الذي يكفي لأداء الغرض الديني، ومن الحلقة التي تتفق معه، دون تجاوز الوقائع التاريخية، فهو لا يقدم التفاصيل الجزئية بكل دقائقها وإنما يعطي مؤشرات مهمة لاستنباط خط تطور التاريخ، وهذا وجه من وجوه التمييز بين القصص القرآني التاريخي والعرض التاريخي المحض.

(1) سليمان عشراتي: الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد والإعجاز، ص103.
(2) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص243-244.

خاتمـة :

من خلال رحلتي مع هذا البحث، أستطيع بفضل الله تعالى في نهايته أن أخرج منه بهذه الخلاصة، والتي تتضمن أهم النتائج وأذكرها محددة في النقاط التالية:

- التاريخ هو مجموعة وقائع مترابطة منطقيا، ومتسلسلة مع الزمن لا يشوبها تناقض، ولا يشوه صورتها تفكك، وغايته الإفادة من أحوال الماضي للاعتبار في الحاضر.
- اعتبار القرآن الكريم أول المصادر الموثوق في صحتها لكتابة التاريخ والاهتمام به، وما يؤكد ذلك ورود قصص الشعوب والأمم الماضية البائدة وما تحمله تلك القصص من مواعظ وعبر تستحق الوقوف عندها للتدبر والتفكير.
- أولى القرآن الكريم اهتماما بالغا وبشكل دقيق إلى فصل الحقائق التاريخية عن الأساطير، فهو يختار من القصص التاريخي ما يناسب المقام ويعرضه بالقدر الذي يكفي لأداء الغرض الذي يهدف إليه.
- أن معظم القصص القرآني التاريخي الذي تناول وصف الحضارات جاء ليؤكد حقيقة واحدة، وهي أن قيام الحضارات، ودورتها التاريخية يقوم على أساس الإيمان الذي يضبط مسارها حتى لا تنحرف وتضمحل، بالإضافة إلى ذلك العلم الذي حث عليه الله تعالى في قوله "وعلّم ءادم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة" [البقرة: 30].
- العرض التاريخي في القرآن الكريم خال من حالات التضاد وعدم الترابط والانسجام، فقد كان القصص القرآني التاريخي يعرض منه فقط المواطن التي تهدف إلى الغرض المراد تحقيقه ومثال ذلك ما ورد في قصة الأعراف، فقد ذكرت معظم قصص الأنبياء مع أقوامهم دون أن يكون هناك تناقض أو تضاد وكلها سيقت لغرض واحد وهو تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانت وسيلة ناجحة لذلك.

- أن القرآن الكريم لم يطرح التاريخ كمادة مسلية أو وسيلة للإطلاع على أوضاع الماضيين، وإنما ساقه من أجل العبرة والإتعاظ، كما أنه حين عرضه لقصص الأنبياء فقد عرضها مختصرة، تقتصر على العبرة دون تحديد الإطار الزماني والمكاني، أو تحديد هوية الشخص، لأنه كان يهدف من وراء كل ذلك إلى تحقيق الغرض الأسمى وهو العبرة الموعظة لقوله تعالى: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" [يوسف: 111].
- القرآن الكريم بيّن أن مسيرة التاريخ وتطوره مرتبطة بالسنن التي يسير عليها الأفراد والأمم، وتزدهر بها الحضارات، فالتاريخ في نظر القرآن يخضع لمجموعة من القوانين تساعد على تفسيره واستخلاص النتائج منه.
- إن المتتبع للنصوص القرآنية قد لا يجد استخداما لكلمة تأريخ ضمن هذه النصوص، إذ أن القرآن تطرق إلى الحديث عن التاريخ بصورة واسعة وأعطاه مساحة مهمة.
- أن ما ذكره القرآن الكريم من أحداث، هي أحداث تاريخية صحيحة لها سجلها في حياة البشر وفيها العبرة لمن أراد أن يعتبر.
- إن أهم خاصية يتميز بها المؤرخ في كتابته للتاريخ هي نفي الظن من جهة، والابتعاد عن هوى النفس، والتشدد في إحراز العلم أو اليقين من جهة أخرى، وهذه الخاصية قد بيّنها القرآن الكريم في مواضع مختلفة منه، وحث على وجوب التثبت من الأنباء والشهادة لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصحبوا على ما فعلتم نادمين" [الحجرات: 6]. فدل بذلك على أن خبر الفاسق يقتضي التبيين، ومن هنا يتبين أن القرآن الكريم عنى بالتاريخ عناية لا مثيل لها، فهي أكثر من مجرد عرضه لأخبار مضت.

- أن ما أخبر به القرآن الكريم على الأمم وما جاء به من قصص الأنبياء لم يستطع أي مؤرخ في القديم ولا في الحديث أن يكذبه، وأن الكشوف الأثرية أثبتت صحة ذلك.

وأخيرا ما عساي أن أقول: أنه ما كان في هذا العمل من خير وصواب فهو من الله وحده، وأحمده أنه وفقني إليه، وأسأله من ذلك المزيد، وما كان فيه من خطأ وقصور -وهو موجود لا محالة- فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



قـائـمـة المصادر والمـراجـع

- القرآن الكريم

1- إبراهيم بن علي الوزير: علـى مشارف القـرن الخامس الهجري، دراسة في السنن الإلهية والمسلم المعاصر، دار الشروق، ط3، 1402هـ1982م.
2- أبو الأعلى المودودي: الخلافة والملك، دار الشهاب، د.ط، 1998.
3- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: سمير مصطفى رباب، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د.ط، 1422هـ2001م.
4- أبو الحسين بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تح:عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، د.ط، د.ت.
5- أبو العباس شمس الدين بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وإنباء أنباء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، مج2.
6- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الثقافة بيروت، ط6، 1404هـ، 1983م.
7- أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي: زاد المسير في علم،تح: محمد بن عبد الله، دار الفكر، بيروت ،ط1، 1407هـ1987م.
8- أبو الفضل جمال الدين: محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار الجيل، بيروت، لبنان، مج 3، د.ط، 1412هـ1992م.

9- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري :الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التفسير، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
10- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، 1417هـ-1997م. (تاريخ ما قبل الهجرة النبوية الشريفة).
11- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1324هـ.
12- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1417هـ1996م.
13- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، راجعه محمد محمد تامر، دار البيان العربي، ط1، 1462هـ 2005م.
14- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، عبد الغال السيد إبراهيم، دار الكتاب الإسلامي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط2، د.ت.
15- أحمد إبراهيم الشريف: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت.
16- أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط8، 1976م.
17- أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1423هـ-2004م.
18- أحمد جمال العمري: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1406هـ1986م.
19- أحمد رضا: معجم متن اللغة، مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، 1377هـ1958.

20- أحمد عبده عوض عبده: الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين العلم والكون والإيمان، المكتبة القيمة للطباعة، القاهرة، د.ط، د.ت.
21- أحمد محمد كنعان: أزمتنا الحضارية في ضوء الكتاب والسنة، كتاب الأمة، ط1، د.ت.
22- أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1994م.
23- آلبان.ج ويد جري: التاريخ وكيف يفسرونه، مطبعة الهيئة المصرية العامة، ط1، د.ت.
24- أمينة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د.ط، 1989م.
25- أنور الجندي: الفكر الإسلامي وسموم التغريب والتبعية، دار الفضيلة، مصر، د.ط، د.ت.
26- ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1413هـ1993م.
27- ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1971م.
28- بشار قويدر: مناهج التاريخ الإسلامي، دار الوعي الجزائري، ط1، 1413 هـ-1993م.
29- التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية للتوزيع، د.ط، 1974م.
30- توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم -عالم ما قبل القرآن- دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت.
31- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1992م.
32- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، دمشق، ط1، 1403هـ.
33- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د/ط، تاريخ الطبعة 1982م.

34- جوزف هورس: قيمة التاريخ، تر نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1986م.
35- حبيب مونسي: فلسفة القراءة وإشكالية المعنى من المعيارية النقدية إلى الانفتاح القرائي المتعدد، دار الغرب، د.ط، د.ت.
36- حسن رمضان نحلة: مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 1410هـ1989م.
37- خالد السعد نورة: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دار السعودية، ط1، 1997م.
38- خالد فائق العبيدي: القوانين القرآنية للحضارات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ2005م.
39- روني ألفا، شارل حلو، جورج نخل: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنـان، ط1، 1416هـ1992م، ج1، ج2.
40- سعيد حوى: الإسلام، شركة الشهاب، الجزائر، ط2، 1408هـ1988م.
41- سليمان الخطيب: أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1406هـ 1986م.
42- سليمان عشراتي: الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، د.ت.
43- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط8، 1403هـ1983م،
44- سيد قطب: في ظـلال القـرآن، دار الشروق بيروت، لبنان، ط35، 1425هـ2005م.
45- شبنجلر أوزوالد: تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة بيروت، د.ط، 1964م.
46- صابر عبد الرحمن طعيمة: الإسلام والثورة الاجتماعية، دار الثقافة العربية للطباعة، ط1، 1970م.
47- صحيح مسلم، بشرح النووي ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، 1403هـ1983م، ج12، ج16.

48- صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية، ط1، 1995م.
49- صلاح عبد الفتاح الخالدي: مع قصص السابقين في القرآن، دار القلم، دمشق، ط4، 1425هـ2004م.
50- صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب بالجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1988م.
51- ظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1995م.
52- عباس محمود العقاد: المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1986م.
53- عبد الأمير مهنا: معجم نساء الشاعرات الجاهلية والإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ1990م.
54- عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 1416هـ1996م.
55- عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس، مؤسسة المعارف، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، د.ط، 1991م.
56- عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، دار المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1984.
57- عبد الرحمن بدوي: النقد التاريخي، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، د.ت.
58- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ 1993م.
59- عبد السلام أحمد الراغب: الدراسات الأدبية النظرية والتطبيق، نصوص قرآنية، دار الرفاعي للنشر، سوريا، دار القلم، ط1، 1425هـ2005م.

60- عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، د.ط، 1406هـ1986م.
61- عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية، الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة، الجزائر، د.ط، د.ت.
62- عبد الكريم زيدان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1414هـ-1994م.
63- عبد اللطيف شرارة: الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، ط2، 1983م.
64- عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: تفسير النسفي، تح: مجدي منصور، المكتبة التوقيفية، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
65- عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1417هـ1996م.
66- عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.
67- عبد المقصود باشا: محاضرات في التاريخ والمؤرخون، جامعة الأزهر د.ط، 1405هـ1985م.
68- عبد المنعم حنفي: المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبوبلي القاهرة، ط3، 1420هـ2000م.
69- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
70- عدنان زرزور: القرآن ونصوصه، مطبعة خالد بن الوليد، د.ط، 1399هـ1400هـ/1979م-1980م.
71- عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1981م.
72- علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1415هـ1995م.

73- عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط4، 1983م.
74- عماد الدين خليل: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، مطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، ط2، 1405هـ1985م.
75- عمر السلامي: إعجاز الفني في القرآن الكريم، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، د.ط، 1980م.
76- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، بيروت، د.ط، 1964م.
77- فخر الدين محمد بن عمر البكري الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. تح: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية القاهرة، د.ط، د.ت.
78- فضل حسن عباس: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، شركة الشهاب، الجزائر.
79- قسنطين زريق: في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1964م.
80- قسنطين زريق: نحن والتاريخ، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1963م.
81- كارل ماركس: المادية التاريخية، انجلز لينين، دار الفارابي، بيروت، د.ط،1975م.
82- كريم حسنين: دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 2000م.
83- كميل الحاج: الموسوعة المسيرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان، ط1، 2000م.
84- لخضر العرابي: أغراض القصص القرآني عند سيد قطب، دار الغرب للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.
85- ليقي بروقنصال: مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، دار الغرب، د.ط، 1397هـ-1977م.
86- مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، تر: مسقاوي عمر كامل، دار الفكر، دمشق، ط3، د.ت.

87- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، د.ط، د.ت.
88- مالك بن نبي: الفكرة الإفريقية الأسيوية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ط.3، 1992م.
89- مالك بن نبي: شروط النهضة، تر: مسقاوي عمر كامل، عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، د.ط، 2000م.
90- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بركة بسام، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، د.ط، 2002م.
91- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ط3، 1986م.
92- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، د.ط، 2002م.
93- محمد أبو زهرة : المعجزة القرآنية، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت.
94- محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط،1957م.
95- محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1407هـ1986م.
96- محمد الدالي: الوحدة الفنية في القصة القرآنية، ط1، 1414هـ-1993م.
97- محمد السيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، جامعة الإسكندرية، ط2، 2003م.
98- محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ط، 1997م.
99- محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، د.ط، د.ت.
100- محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، دار الانتفاضة للنشر، الجزائر، د.ط، د.ت.

101- محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، 1419هـ1999م.
102- محمد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن، دار التعارف، د.ط، 1409هـ-1989م.
103- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، د.ط، 1995م.
104- محمد بن أحمد كنعان: قصص الأنبياء وأخبار الماضين، خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، د.ط، 1423هـ-2002م.
105- محمد بن لطفي الصباغ: بحوث في أصول التفسير، المكتب الإسلامي، ط1، 1408هـ-1988م.
106- محمد بيومي مهران: التاريخ والتأريخ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، د.ط، 1412هـ1992م.
107- محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1995م.
108- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1393هـ1973م.
109- محمد زيان عمر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته، ديوان المطبوعات الجامعية، ط4، 1403هـ1983م.
110- محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، دار الفكر، الجزائر، ط11، 1991م.
111- محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر دمشق، ط8، 1424هـ-2003م.
112- محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، 1416هـ1986م.
113- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، سوريا، ط1، 1982م.

114- محمد عز الدين توفيق: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، ط3، 1424هـ-2004م.
115- محمد علي البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط3، 1402هـ1981م.
116- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا، د.ط، 1984م.
117- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، د.ت.
118- محمد قطب: مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، القاهرة، ط9، 1418هـ1997م.
119- محمد كمال جعفر: الإنسان والأديان، دار الثقافة، قطر الدوحة، ط1، 1406هـ1985م.
120- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، لبنان، ط1، 1306هـ.
121- محمد هيشور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، دار الغرب د.ط، د.ت.
122- محمود السيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، جامعة الإسكندرية، ط2، 2003م.
123- مرتضى المطهري: المجتمع والتاريخ، دار المرتضى، بيروت، ط3، 1425هـ2004م.
124- مصطفى النشار: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، دار قباء للطباعة، القاهرة، د.ط، د.ت.
125- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوفيقية، د.ط، د.ت.
126- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط35، 1418هـ1992م.

127- موسى سلامة: الصراع في الوجود، دار المعارف القاهرة، د.ط، د.ت.
128- هشام قبلان: مع القرآن في الدين والدنيا، منشور عويدات، بيروت، د.ط، د.ت.
129- هنري جوتسون: تدريس التاريخ، تر: أبو الفتوح رضوان، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، 1965م.
130- هورس جوزف: قيمة التاريخ، تر: نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1986م.
131- هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، تر: أسامة عبد الفتاح، مراجعة فؤاد زكريا، دار التنوير والنشر، بيروت، ط2، د.ت.
132- ول ديورانت: قصة الحضارة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1423هـ2002م.
133- وهبة مراد: المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، ط.3، 1979م.

- المجلات :

1- البشير الهاشمي مغلي :التاريخ الإسلامي في مخبر المقاربات المختلفة، دراسة في المنهج النقدي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، العدد1، دار الهدى، عين مليلة، محرم 1423هـ أفريل 2002م،.
2- توفيق الغلبزوري: خصائص السنن التاريخية في الرؤية الإسلامية، مجلة الحضارة الإسلامية، المصطلح العلمي في التراث الإسلامي، العلوم الشرعية والإنسانية، العدد الثالث، رجب 1418هـ نوفمبر 1997م.
3- عبد الفتاح محمد محمد سلامة: المعايير الأدبية في القصة القرآنية، مجلة المنهل، العدد 491، مج53، ربيع الأول 1412هـأكتوبر 1991م.

4- عبد المجيد عمر النجار: الإنسان في القرآن، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، العدد 3، ذو الحجة 1414هـ، 1994م.
5- عبد الوهاب محمود المصري: التفسير الإسلامي للتاريخ، مجلة التراث العربي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، العدد 98، السنة 25، 1426هـ 2005م.
6- عودة الله منيع القيسي: صحة الحدث التاريخي في القصص القرآني، مجلة المنار الإسلامي، العدد 8، السنة الثامنة، شعبان 1403هـ مايو 1983م.
7- لطفي بركات أحمد: الطبيعة الإنسانية في القرآن الكريم ومسؤوليات التربية، مجلة المنار، العدد 12، السنة السادسة، 1401هـ-1981م.
8- محمد حمد حمدون: القصة القرآنية، قراءة تأملية، مجلة المنهل، العدد 491، مج53، ربيع الأول 1412هـأكتوبر 1991م.
9- محمد زعراط : الإنسان في القرآن الكريم، مرحلة الخلق نموذجا، الإنسان في الكتب السماوية، مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطني للتعليم العالي، وهران، العدد 4، 1419هـ-1998م.
10- محمد زعراط: معالم حضارية في القرآن الكريم، مجلة الحضارة الإسلامية، دار الغرب للنشر والتوزيع، العدد11، شعبان 1425هـ أكتوبر 2005م.
11- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، كتاب الأصالة، ملتقى القرآن الكريم، العدد 15، الجزائر، 1401هـ1981م.
12- محمد علي البار: علم الأجنة القرآني، مجلة المنهل، العربية السعودية، العدد 491، المجلد 3، 1412هـ1991م.
13- مسعود فلوسي: المهمة الوجودية للإنسان ووظيفة الأنبياء في الهداية والإصلاح، مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطني للتعليم العالي، وهران، العدد 4، 1419-1998م.

- فهرس الآيات :

الآيات	رقم الآية	الصفحة
البقرة		
" هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً"	28	70
"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ... خَلِيفَةً"	29	57
" قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى"	31	69
" وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء... أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "	120	75
" وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ... العَزِيزُ الحَكِيمُ "	128-126	147
"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً... عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"	142	63
"وَقَتَلَ دَاوُدُ... وَالْحِكْمَةَ"	251	106
آل **عمران**		
" مِن تُرَابٍ"	59	46
" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ... أَفَلاَ تَعْقِلُونَ "	65	22
" قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ... عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ "	137	24
" إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ... نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ "	140	31
النساء		
" وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً "	122	164
" لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ... سُوءًا يُجْزَ بِهِ "	123	41
"إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ "	133	31
"وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا"	163	107
المائدة		
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ... وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"	59	31
الأنعام		
"ُهوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ... ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ"	02	45
" أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا ... قَرْنًا آخَرِينَ"	07	32

" قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ... الْمُكَذِّبِينَ"	11	80
"وَإِن كَانَ كَبُرَ... مِنَ الْجَاهِلِينَ"	36	143
"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ... مِنَ الْمُشْرِكِينَ"	80-76	131
" وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ... قَوْمٍ آخَرِينَ "	134	60
" وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ ... فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ"	167	58
الأعراف		
"قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا..... مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ"	67-66	76
" أَوَعَجِبْتُمْ أن جَاءكُمْ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "	68	59
"قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم...وَغَضَبٌ"	70	96
" هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ... عَذَابٌ أَلِيمٌ "	72	98
" وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء... مُفْسِدِينَ "	73	60
" فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ ... دَارِهِمْ جَاثِمِينَ "	77-76	98
"تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ... قُلُوبِ الْكَافِرِينَ"	101	156
" وَيَسْتَخْلِفَكُمْ ...تَعْمَلُونَ"	128	57
"قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أن تَأْتِينَا... تَعْمَلُونَ"	129	60
الأنفال		
"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ... الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ"	10	38
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ... لَعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ"	46	38
" ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا ... سَمِيعٌ عَلِيمٌ"	54	28
"فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ... يَذَّكَّرُونَ"	58	144
"وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ...إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"	64	16
التوبة		
" لَوْ يَجِدُونَ ... يَجْمَحُونَ"	57	144
يونس		
" ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ... تَعْمَلُونَ"	14	59

" هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ... مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ "	22	145
" لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ... وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ"	49	32
" وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ... عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ "	73	59
هود		
" وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ... مِنَ الْمُغْرَقِينَ *"	43-42	142
"فَإِن تَوَلَّوْاْ ... كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ"	56	60
"هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ... قَرِيبٌ مُّجِيبٌ "	60	67
"فَقَالَ تَمَتَّعُواْ ... مَكْذُوبٍ"	65	100
"وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... الأَرْضِ مُفْسِدِينَ"	84-83	135
"وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّك... أَلِيمٌ شَدِيدٌ"	102-100	27
"وَكُلاًّ نَّقُصُّ ... لِلْمُؤْمِنِينَ "	119	128
يوسف		
" نَحْنُ نَقُصُّ... الْغَافِلِينَ"	3	160
"ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ... يَمْكُرُونَ"	101	160
" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ "	111	22
الرعد		
إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ".	11	19
إبراهيم		
" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ... وَبِئْسَ الْقَرَارُ"	31-30	90
الحجر		
" قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ "	13	39
"" مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ "	28	47
"فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ "	29	47
النحل		
"وَلَقَدْ بَعَثْنَا ... عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"	32	74

		الإسراء
70	70	" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ... خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"
		الكهف
133	15-13	"نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ... عَلَى اللَّهِ كَذِبًا"
79	29	" فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ "
35	59	"وَتِلْكَ الْقُرَى... مَّوْعِدًا"
		مريم
152	48-46	"قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ... رَبِّي شَقِيًّا"
		طه
156	99	" كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ... مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا"
		الأنبياء
132	15-11	" وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ... حَصِيدًا خَامِدِينَ *"
74	25	" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ... فَاعْبُدُونِ"
111	78	" وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا"
106	79	" وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ... شَاكِرُونَ "
108	104	" وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ... الصَّالِحُونَ"
		الحج
53	5	" مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ "
89	29	وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ... مَكَانٍ سَحِيقٍ"
		المؤمنون
46	14-12	"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"
17	116	" أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ... لَا تُرْجَعُونَ"
		النور
60	53	"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ... ارْتَضَى لَهُمْ"
26	55	"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ... مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا"

الشعراء		
وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ"	84	21
" كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ...عَذَابَ يوم َعَظِيمٍ"	135-123	92-91
"وقَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا... مِّنَ الْوَاعِظِينَ"	136	92
" أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا... بُيُوتًا فَارِهِينَ "	149-146	99
النمل		
" الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الْفَضْلُ الْمُبِينُ "	16-15	104
"وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ... عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ"	19-15	110
"وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ "	23	122
"قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ... تَشْهَدُونِ "	32	122
إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ... رَبِّ الْعَالَمِينَ "	46	121
" فَانظُرْ كَيْفَ... بِمَا ظَلَمُوا "	52-51	101
" أَمَّن يُجِيبُ... تَذَكَّرُونَ "	64	60
القصص		
" وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ... وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ "	5	72
"وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى... وَهُمْ لَهُ نَاصِحُون"	11-6	149
" قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ... إِنَّهُ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ"	17-14	151
الروم		
" أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... يَظْلِمُونَ "	8	78
" فَأَقِمْ وَجْهَكَ... لَا يَعْلَمُونَ"	29	89
السجدة		
"الَّذِي أَحْسَنَ ... وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُون"	8-5	43
الأحزاب		
" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ... ظَلُومًا جَهُولًا "	72	63
سبأ		

"وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُود... بَصِيرٌ".	11-10	103
"وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ... عِبَادِيَ الشَّكُورُ*"	13-12	110
"بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ "	15	117
"وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ... وَأَيَّامًا آمِنِينَ"	18	118
" رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"	19	126
فاطر		
" هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ	39	58
" فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ... اللَّهِ تَحْوِيلًا"	44	28
"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ... كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا"	45	29
الصافات		
" مِّن طِينٍ لَّازِبٍ"	11	47
ص		
"وَاذْكُرْ عَبْدَنَا داوود ... وَفَصْلَ الْخِطَابِ"	19-16	104
" يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ ... سَبِيلِ اللَّهِ"	25	59
"إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ...فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"	72	45
غافر		
" أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ... مِن وَاقٍ"	21	33
فصلت		
"فَأَمَّا عَادٌ ... بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ"	14	94
" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ... لَا يُنصَرُونَ "	15	96
الزخرف		
وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ"	44	21
الجاثية		
" وَسَخَّرَ لَكُم... لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"	13	71
"وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ ... يُظْلَمُونَ"	21	80

الأحقاف		
"وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ"	20	93
"وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ ... وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً"	25	94
الحجرات		
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"	6	165
ق		
"إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ... وَهُوَ شَهِيدٌ"	37	21
الذاريات		
" وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ ... وَهُوَ مُلِيمٌ "	40-38	139
" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	56	81
القمر		
" كَذَّبَتْ عَادٌ ... عَذَابِي وَنُذُرِ"	21-18	137
"أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ"	43	41
الرحمان		
"خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ ... مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ"	15-14	46
الطلاق		
"إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ ... قَدْرًا "	3	34

الحاقة		
"وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا...مِّن بَاقِيَةٍ "	7-5	92
نوح		
" مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ....أَطْوَارًا"	14	48
الإنسان		
"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ... إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا "	3-2	79
الفجر		
"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ... ذَاتِ الْعِمَادِ "	7-6	93
" إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ... مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ"	8-7	95
الشمس		
" فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ... وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا"	15-14	101
التين		
" لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"	4	67
العلق		
" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ... الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ "	2	43

- **فهرس الأحاديث:**

الحديث	الصفحة
"لتتبعن سننا من قبلكم ..... حجر ضب تبعتموهم"	28
"إن الله خلق آدم من تراب،... يرحمك الله"	47
"إنه لم يكن نبي قبلي ... ما يعلمه لهم"	73
"إن أطيب ما أكل الرجل ..... من كسب يده"	107
"لقد أوتي هذا مزمار من مزامير آل داود"	109

- فهرس الموضوعات

الصفحة

مقدمة..... أ
مدخل..... 1

الفصل الأول
التاريخ في القرآن الكريم

- تمهيد.....24
- المبحث الأول : السنن التاريخية في القرآن وخصائصها 27
المطلب الأول: ماهية السنن التاريخية..... 27
- مفهوم السنن التاريخية..... 29
المطلب الثاني: خصائص السنن التاريخية..... 34
أ- الإطراد.....34
ب- الربانية..... 36
ج- الشمولية..... 39
- المبحث الثاني : نشأة الجنس البشري 43
المطلب الأول: النشأة الأولى للإنسان..... 44
المطلب الثاني: مراحل خلق الإنسان..... 48
أ- النطفة.....48
ب- العلقة..... 50
ج- المضغة..... 53
د- مرحلة العظام واللحم..... 54
- المبحث الثالث : الاستخلاف في القرآن 57
المطلب الأول: مواطن الاستخلاف 57
أ- لغة..... 57
ب- في القرآن الكريم..... 58
ج- اصطلاحا..... 61
- عند المفسرين..... 61
- عند المفكرين.....64
المطلب الثاني: مواطن الاستخلاف 66
أ- الاستخلاف العام..... 66
- تكريمه بخلقه.....67
- منحه القدرة العقلية والإدراك..... 68
- تمييزه بالعلم والمعرفة..... 69
- تسخير ما في الكون للإنسان..... 70
ب- الاستخلاف الخاص..... 72
- الاستخلاف الأفراد..... 72
- استخلاف الأنبياء بعضهم البعض..... 73
- استخلاف الأمم..... 74
المطلب الثالث: غايات الاستخلاف..... 77
- عمارة الأرض بما يرضي الله ويقيم مصالح العباد..... 77
- الابتلاء والامتحان..... 79
- الاعتبار..... 80

الفصل الثاني
الحضارات الواردة في القرآن الكريم

- تمهيد..... 82
- تعريف الحضارة..... 82
- عوامل قيام الحضارة..... 85

أ- عامل البيئة الطبيعية..... 86
ب- المقومات الاقتصادية..... 87
ج- العوامل النفسية أو المعنوية..... 88
- المبحث الأول : حضـارة عاد وثمود 91
المطلب الأول: حضارة عاد..... 91
- موقع منطقة عاد..... 93
- مقوماتها..... 93
- التمكين في الأرض..... 94
- عاقبة أمرهم..... 96
المطلب الثاني : حضارة ثمود..... 97
- التعريف بهم وموطنهم..... 98
- مقوماتها..... 99
- عاقبة أمرها..... 100
- المبحث الثاني : حضارة داود وسليمان 103
المطلب الأول: حضارة داود عليه السلام..... 103
- مميزات حضارة داود عليه السلام..... 106
المطلب الثاني: حضارة سليمان عليه السلام..... 110
- مقومات حضارة سليمان عليه السلام..... 111
- مميزات الحضارة السليمانية..... 112
- المبحث الثالث: حضارة سلميان وبلقيس (الحضارة السبئية) 116
المطلب الأول : الحضارة السبئية قبل سليمان عليه السلام..... 116
- التعريف بهم وموطنهم..... 116
- مقومات الحضارة السبئية..... 117
المطلب الثاني : سليمان وملكة سبأ (بلقيس) 120
- قصة سليمان وملكة سبأ كما وردت في سورة النمل..... 120
- حضارة سبأ من خلال القرآن الكريم (سورة سبأ).....123
- عاقبة أمرهم.....124

الفصل الثالث

السمات الفنية للعرض التاريخي وخصائصه

- تمهيد.....128
- المبحث الأول : السمات الفنية للعرض التاريخي..... 129
المطلب الأول: أسلوب العرض التاريخي..... 129
- أسلوب التكرار..... 138
المطلب الثاني: الصورة الفنية..... 141
- اللون الأول: قوة العرض والإحياء..... 146
- اللون الثاني: تصوير العواطف والانفعالات..... 148
- اللون الثالث: رسم الشخصيات..... 150
- المبحث الثاني : خصائص العرض التاريخي في القرآن الكريم..... 155
المطلب الأول: صحة الحدث التاريخي..... 156
المطلب الثاني: البعد الواقعي للعرض التاريخي..... 163

الخاتمة..... 168
قائمة المراجع.....171
فهرس الآيات..... 185
فهرس الأحاديث..... 193
فهرس الموضوعات..... 194